أصوات في مقاومة الصمت

تقرير

جمانة سيف
وجدان ناصيف

إهداء

إلى المعتقلات والمعتقلين اللواتي والذين لا يزالون يقبعون في أقبية النظام السوري المستبد وفي أقبية الطغاة والمستبدين أينما كانوا.
إلى النساء والرجال الشجاعات والشجعان الذين أدلوا بشهاداتهن/م من أجل هذا التقرير.
إلى روح صديقنا أكرم الصفدي الذي توفي بعد فترة من الإدلاء بشهادته لنا.
إلى كل الناجيات والناجين من سجون الظلم والقهر، وخاصة إلى اللواتي صمتن بسبب الاستبداد السلطوي والمجتمعي في آن معاً،
واللواتي لازلن ينتظرن فرصة للكلام وإعلاء الصوت.
جمانة ووجدان

محتويات التقرير

إهـداء ٣
محتويات التقرير ٥
تمهيد ٧
مقدمة ٨
منهجية التقرير ٩
خلفية تاريخية ٩
الجزء الأول: الاعتقال السياسي ١١
١- طرق الاعتقال ومدته: ١٢
٢- معاناة مضاعفة ١٥
٣- رهينات ووسيلة للانتقام ١٦
٤- احتياجات النساء الخاصة في المعتقل ١٨
٥- التمييز والاعتبارات الخاصة: ٢٠
الجزء الثاني: التعذيب ٢٤
١- التعذيب في الفروع الأمنية السورية: ٢٤
٢- العنف الجنسي: ٢٧
٣-العنف النفسي ٣١
التهديد بالاغتصاب ٣٢
الوصم ٣٢
التهديد بالإساءة للسمعة ٣٣
انتهاك المساحة الحميمية الجسدية والنفسية ٣٣
الجزء الثالث:الخروج من المعتقل ٣٥
استمرار التضييق الأمني: ٣٥
الخوف من الاعتقال مجدداً ٣٦
التضييق الاجتماعي والعزل ٣٧
السؤال المرّ: ٣٨
العائلة سجن أم سند! ٣٩
الإحساس بالذنب ٤٠
الآثار النفسية للاعتقال على النساء: ٤٠
مستمرات رغم كل شيء ٤١
خـاتمة ٤٥

تمهيد

من أهم أهداف هذا التقرير فسح المجال أمام النساء اللواتي تعرضن للاعتقال والعنف والتعذيب على يد النظام السوري لإعلاء أصواتهن وللكلام، وهو ما نعتبره مقاومة فعلية لسياسة «كمّ الأفواه» التي اتبعها النظام الأسدي على مدى عقود، حيث يعرض التقرير تجارب نساء شجاعات تصدّين ببسالة للاستبداد في فترات نضالية مختلفة من تاريخ سورية، ويحاول تدوين هذه التجارب بكل ما حملته من أحلام بالتغيير وبمستقبل واعد وآمن، من آلام وإحساس بالظلم واليأس أحياناً، من لحظات الإحباط والانكفاء ثم النهوض والاستمرار في المقاومة على الرغم من فتك السلطة وقسوة المجتمع. إذ يمكن القول إنه وعلى مرّ عقود الاستبداد الطويلة، كان هناك دائماً «دونكوشيات» رفضن الاستسلام، وما زلن مستمرات في نضالهن، منطلقات من إيمانهن بأهمية مراكمة النضالات واستمرارها من جيل إلى جيل على الرغم من الأثمان الباهظة التي دفعنها ويدفعنها.

لم يكن الإنصات إلى شاهداتنا بالأمر السهل، فلقد رأينا دموع بعضهن تنسكب ويختنق الكلام في صدورهن، على الرغم من مرور سنوات عديدة على تجارب بعضهن، وعشرات السنوات على بعضهن الآخر، لتؤكد كم حفرت عميقاً شدة المعاناة والآلام في ذاكرتهن!

بعض المعتقلات في فترة الثمانينيات والتسعينيات قلن: إنّها المرة الأولى التي تحدثن فيها بصراحة عن تجربتهن، هنّ يشعرن بالخجل من سرد ما جرى معهن إذا ما قارنّه بتجارب المعتقلات والمعتقلين في سنوات الثورة، بينما أشارت بعض النساء المعتقلات خلال مرحلة الثورة إلى أنها ربما ليست المرة الأولى التي يحكين فيها معاناتهن، لكن الألم عندهن لا يتناقص أبداً.

وتجدر الإشارة إلى ورود ذكر جرائم عنف جنسي ارتُكبت بحق شاهداتنا من النساء في بعض الشهادات، لكنهن وفي مراحل لاحقة من كتابة هذا التقرير طلبن منا عدم ذكرها وهو أمر كان لابد من الاستجابة له وتفهم دوافعه، إذ مازال بعضهن يعانين من آثار الصدمة ومعظمهن لم يخضعن لبرنامج علاج نفسي ورعاية واهتمام، بالإضافة لسبب رئيسي وهو أنه لم يحدث أي تغيير في الظروف أو المناخ السياسي الذي اعتقلن فيه، إذ يتضاءل كل يوم أملهن في محاسبة المجرمين، فمع استمرار الصراع والاخفاق بالتوصل لحل سياسي يقوم على العدالة والمحاسبة وجبر الضرر، تتفاقم المخاوف لدى كل من جرب عنف النظام وذاق ويلات مراكز اعتقاله، وهو تحدّ جدّي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار لدى الجهات الحقوقية التي تعمل على توثيق جرائم العنف ضد النساء وعلى قضية العدالة والمحاسبة.

أخيراً، لا تزال، وحتى تاريخ إعداد هذا التقرير، آلاف النساء السوريات يقبعن في سجون النظام ومراكز اعتقاله ويعشن في ظروف لا إنسانية، العديدات منهن مجهولات المصير[1] وهناك آلاف الناجيات اللواتي تُركن لمصيرهن في مواجهة رفض المجتمع وعنفه دون أن يجدن الفرصة للتعافي والاستشفاء، وهن مضطرات لوضع الملح على جراحهن والانعزال والخروج من دائرة الفعل والمشاركة، لذلك وإن كان هذا التقرير دعوة للناجيات من الاعتقال لإعلاء الصوت في مواجهة الصمت فهو قبل ذلك دعوة للضغط من أجل إطلاق سراح آلاف المعتقلات، ودعوة للمنظمات النسائية لتطوير مراكز وبرامج توفر الدعم النفسي للناجيات من الاعتقال آخذةً بعين الاعتبار الصدمة والرعب الذي واجهنه ويواجهنه وهو كذلك دعوة لكافة فئات المجتمع السوري لإعادة الاعتبار لهن والتضامن معهن ودعمهن في سبيل تحقيق مطالبهن بالعدالة ومحاسبة المجرمين وجبر الضرر.

ويبقى الأمر الجيد أننا، نحن وهنّ، اتفقنا في نهاية لقاءاتنا على أن الكلام يعني أساساً مقاومة الصمت والخنوع والخرس، مقاومة تهميشنا واستبعادنا عن صناعة مستقبلنا وعن اتخاذ قراراتنا بأنفسنا لرسم مستقبل حياتنا، والأهم أنه يشكل فرصة لنا جميعاً للقول: إننا ما زلنا هنا.

1-ماتزال 7852 سيدة (أنثى بالغة) قيد الاعتقال أو الاخفاء القسري - تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان«الاخفاء القسري سلاح النظام السوري الأكثر ألماً ووحشية» تاريخ 30 أب 2019
http://sn4hr.org/public_html/wp-content/pdf/arabic/At_least_98000_have_been_forcibly_disappeared_in_Syria_since_March_2011.pdf

مقدمة

«في المعتقل تسقط ’الـ‘ التعريف عنكِ، فأنتِ لا شيء، لذلك كل الاحتمالات واردة؛ الإهانة، التعذيب، الإذلال، الاغتصاب، كلها تحصيل حاصل».. (ندى)
«الاغتصاب له أثر نفسي عميق... خلال فترة اعتقالي الطويلة، امرأتان فقط تجرأتا على البوح لي بتعرضهما للاغتصاب... لم أتحدث عن ذلك لأحد... كل تفاصيل محنة الاعتقال في النهاية تترك ندبة من الصعب علاجها ولو بعد عشرات السنوات».. (لمى)

ندى،التي اعتقلت أثناء الثورة، ولمى التي اعتقلت في الثمانينيات، هما مثالان بسيطان لما تعرضت ولازالت تتعرض له النساء المعتقلات، وشهادتيهما لا تنقلان معاناتهما فقط، بل تجربة ومعاناة كل النساء اللواتي قابلناهن من أجل هذا التقرير.
يعرض هذا التقرير اقتباسات اخترناها من شهادات نساء خضن محنة الاعتقال منذ العام ١٩٨٠ وحتى العام ٢٠١٧، وتملّكن الخبرة في المقاومة، وهو ما نعتبره فرصة للاطلاع على هذه التجارب المهمة رغم قسوتها، حيث يستعرض في الجزء الأول طرق وأساليب الاعتقال ومدته، والظروف التي عاشتها النساء. كذلك يتطرق لكيفية تعامل الأجهزة الأمنية مع احتياجاتهن الخاصة كنساء. وفي الجزء الثاني يسلط الضوء على أشكال العنف الذي تعرضن له بدءاً بالتعذيب ثم العنف الجنسي، فالعنف النفسي والوصم. كما يتم التركيز في الجزء الثالث على إجاباتهن حول كيف تعاملت عائلاتهن معهن وكيف عاملهن الوسط الاجتماعي المحيط ويفرد مساحة لأصواتهن وهن يتلمسن بمرارة ما تركته التجربة من آثار نفسية وجسدية عليهن، بما في ذلك قدراتهن المتفاوتة على تجاوز ومقاومة ما حصل والاستمرار في النضال ضد كل أشكال الاستبداد والظلم، وبداية تحقيق العدالة، ومحاسبة مرتكبي الجرائم.
لا يهدف هذا التقرير إلى إثبات استخدام النظام للعنف ضد النساء بما فيه العنف الجنسي على نحو ممنهج وواسع النطاق منذ ٢٠١١، فهذا ما أثبتته العديد من التقارير التي صدرت في السنوات الثماني الماضية عن مجلس حقوق الإنسان[2] ولجنة التحقيق الدولية المحايدة[3] وتقارير المنظمات الحقوقية السورية[4] والدولية[5]، لكن ما يكشف عنه هذا التقرير هو أن اعتقال النساء وممارسة كافة أشكال العنف تجاههن ليس بالأمر الجديد في تاريخ السلطة الديكتاتورية في سوريا فمنذ الثمانينيات اتبع نظام الأسد هذا الأسلوب لكسر معارضيه ومعاقبة المجتمع السوري وإخراسه سياسياً.

منهجية التقرير

يركز هذا التقرير على العنف ضد النساء السوريات المعتقلات في المراكز الأمنية التابعة للدولة منذ الثمانينيات وحتى عام ٢٠١٧، حيث يرتكز بشكل رئيسي على شهادات ثلاث وعشرين امرأة وأربعة رجال، خاضوا محنة الاعتقال في مراحل زمنية متعددة، يحاول هذا التقرير من خلال تحليل شهاداتهن/م معرفة شكل العنف الذي مورس عليهن/م وأسبابه والهدف منه وبالتالي نتائجه النفسية والاجتماعية والسياسية على النساء وعلى المجتمع السوري عامةً.
أجريت المقابلات في الفترة بين منتصف تموز ونهاية عام ٢٠١٨ إما عبر السكايب أو من خلال لقاءات مباشرة مع شاهداتنا وشهودنا في تركيا والسويد وألمانيا وفرنسا.

تم تسجيل كافة الشهادات صوتياً بموافقتهن/م على التسجيل وعلى استخدام اقتباسات من شهاداتهن/م، ثم عملنا على تفريغ التسجيلات وتحليلها لبناء محتوى التقرير.
تراوحت مدة المقابلات بين ساعة ونصف وثلاث ساعات، وفي بعض الحالات آثرنا التوقف خوفاً على شاهداتنا من استرداد الصدمة وإعطاء الخيار للشاهدة بالتعبير عن رغبتها بتحديد موعد آخر، في حال أرادت الاستمرار في إعطاء شهادتها، أو الاكتفاء بما ذكرته.
تمت الإجابة خلال المقابلة على أسئلة أساسية وضعت مسبقاً، لكن سرعان ما تركت للشاهدات والشهود الفرصة ليسردوا تجاربهم بعفوية وكما يرغبن/ون.
تم حفظ التسجيلات وتفريغها كتابياً كملفات توثيقية وخصوصاً أن العديد من المستهدفات/ين صرحوا بأنها المرة الأولى التي يقدمون فيها شهادتهن/م عن الاعتقال والمعتقلات السورية.

عمل التقرير على ربط تجارب الاعتقال في مرحلتي حكم الأسد الأب والابن من خلال أخذ شهادات خمسة عشر معتقلة ومعتقل قبل الثورة، واثنا عشر معتقلة ومعتقل في زمن الثورة، وتمت مراعاة التنوع الثقافي والمناطقي في انتقاء الشاهدات والشهود.

راعينا في هذا التقرير التنوع في الخلفيات السياسية، فمن معتقلات ومعتقلي الثمانينيات التقينا بنساء ورجال اعتقلن/وا على خلفية انتماءاتهن/م السياسية المتنوعة؛ حزب العمال الثوري وحزب العمل الشيوعي ومجموعات يسارية أخرى، وتنظيم الإخوان المسلمين. ورصدنا تجربة اعتقال اثنتين من شاهداتنا، اعتقلتا بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠١٠ على خلفية نشاطهما السياسي، كما تنوعت أسباب الاعتقال بالنسبة لمعتقلات الثورة بين النشاط السياسي المتمثل بالنشاط بالتنسيقيات والمشاركة في التظاهرات والاعتصامات وكذلك النشاط الإغاثي والطبي.

تراوحت مدة اعتقال شهودنا وشاهداتنا في فترة ما قبل الثورة بين عامين وستة عشر عاماً، وبعضهن/م تم اعتقالهن/م أكثر من مرة في فترات مختلفة من حكم الأسد الأب، ثم في فترة حكم الأسد الابن قبل الثورة وهناك من عاد وأُعتقل في سنوات الثورة.
وتراوحت مدة اعتقال شاهداتنا في فترة الثورة بين خمسة عشر يوماً وسنتين مع الأخذ بعين الاعتبار أن العديد منهن اعتقل أكثر من مرة أيضاً وتمت مراعاة تنوع أماكن الاعتقال لشاهداتنا وشهودنا بين عدة فروع أمنية وسجون مدنية وسجن صيدنايا وسجن تدمر.
ارتكز التقرير على شهادات النساء بشكل رئيسي، لكن تم انتقاء أربعة رجال معتقلين رأينا في الاستماع لشهاداتهم والاعتماد عليها قيمة مضافة لتقريرنا، حيث روى هؤلاء قصصاً عن نساء معتقلات شهدوا على تعنيفهن، أو تم تعنيف ذويهن من النساء، أو التهديد بالعنف ضدهن من أجل الحصول على معلومات أو بهدف الإهانة الشخصية والإذلال.

تم حفظ كل المعلومات الأولية عن الشاهدات والشهود باستخدام أسماء وهمية، اخترنها غالباً، أو طلبن منّا اختيارها، وقد آثر بعضهن/هم استخدام الاسم الأول الصريح، وقد حرصنا كل الحرص على اختصار التعريف عن هذه الشخصيات في الهامش بحيث لا تشير الى الشخصية الحقيقة.

2- "فقدت كرامتي" العنف الجنسي والجنساني في الجمهورية العربية السورية – 23 آذار 2018
https://www.ohchr.org/Documents/HRBodies/HRCouncil/CoISyria/A-HRC-37-CRP-3_AR.pdf

3- تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلة – تاريخ 16 آب 2012 – يثبت التقرير ارتكاب جرائم العنف الجنسي، منذ بدايات الثورة بما فيها الاغتصاب، من قبل القوات الحكومية وعناصر الشبيحة على النساء والرجال والاطفال أثناء تفتيش البيوت وفي مراكز الاحتجاز. صفحة 23
https://www.ohchr.org/Documents/HRBodies/HRCouncil/RegularSession/Session21/A.HRC.21.50_ar.pdf

4- تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان "الاغتصاب في أفرع الأمن السورية" – تاريخ 24 تموز 2015
/http://sn4hr.org/arabic/2015/07/24/4374

5- تقرير هيومن رايتس ووتش – اعتداءات جنسية في المعتقلات السورية – قوات الامن تعتدي على النساء والفتيات عند مداهمة البيوت أيضاً - تاريخ 15 حزيران 2012
https://www.hrw.org/ar/news/2012/06/15/246678

خلفية تاريخية

منذ استيلائه على السلطة عام ١٩٧٠ إثر انقلاب عسكري[6] ، وبعد التخلص من رفاقه[7]، لجأ حافظ الأسد إلى سياسة اعتقال معارضيه[8]، وذلك بغية تثبيت سلطته وتكريسها وضمان استدامتها، مستثمراً في حالة الطوارئ[9] التي أُعلنت إثر تولي حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة في انقلابه العسكري في ٨ آذار ١٩٦٣.

وفرت حالة الطوارئ والمراسيم القمعية الأخرى[10]، الغطاء للأجهزة الأمنية المختلفة[11]، التي اتسعت وازداد نفوذها خلال ثلاثة عقود حكمه، للقيام بعمليات الاعتقال التعسفي والإخفاء القسري لسنوات طويلة وممارسة التعذيب الوحشي والإذلال وامتهان الكرامة الإنسانية على المعتقلات والمعتقلين وحرمانهن/م من الحقوق القانونية كافة ومن الرعاية الصحية داخل السجن، بالإضافة إلى ملاحقتهن/م المستمرة بعد إطلاق سراحهم مع حرمانهم غالباً من الحقوق المدنية[12].
بعد أن وطَّد حكمه، بدأ النظام يكشّر عن أنيابه القمعية الحادة بغية تدجين المجتمع السوري وكافة مؤسساته، ومحاصرة وردع أية معارضة منظمة محتملة الظهور[13]، وبالتالي وأد أية فرصة ستسمح بإعادة الشعب السوري إلى المشاركة في الحياة السياسية وإدارة الشأن العام[14]، حيث لم يتوان أو يتردد، حين وصل التهديد إلى حد مقلق، بتشديد عمليات البطش والإذلال والاعتقال والعقاب الجماعي، ولعل أوضحها المجزرة الشهيرة التي ارتكبت بدم بارد في سجن تدمر[15] في حزيران عام ١٩٨٠ وذهب ضحيتها المئات من السجناء العزل[16] ، أما أسوأها فكانت ما سميت مجزرة حماة[17] في شباط عام ١٩٨٢ حيث لم تكتف قوات السلطة بالقصف والتدمير[18] لأحياء بأكملها وتسويتها بالأرض، بل رافقها قتل وتعذيب واعتقال الآلاف من الشباب والفتية الذكور من مختلف أنحاء المدينةـ [19]، بينما كان التنكيل والإذلال وحتى الاغتصاب[20] من نصيب النساء والفتيات، لتدخل البلاد بعدها مرحلة طويلة من الإخضاع والقهر والإخراس.
لم تكتف الأجهزة الأمنية في ظل حكم حافظ الأسد باعتقال وإذلال النساء ممن تجرأن على معارضة نظام الحكم[21]، بل استثمرت في العقلية الذكورية السائدة في المجتمع والتي تدين المرأة وتحملها المسؤولية في حال تجرأت على الدخول في المحظور، أي العمل في الشأن العام، إذ يُعد المجتمع السوري مجتمعاً محافظاً عموماً، ودور المرأة فيه هامشياً، حيث تواجه النساء العاملات في الشأن العام وصاحبات الرأي، بالإضافة إلى قمع السلطة الذي يستهدف النساء والرجال على حد سواء، تحديات عدة، كالتقاليد والأعراف البالية التي تسود المجتمع بقوة[22]، فضلاً عن القوانين التمييزية[23] في الدستور والقوانين، خاصة قانون الأحوال الشخصية.

وعلى الرغم من أن المرأة السورية استطاعت وعبر نضالاتها المستمرة أن تحصل مبكراً على بعض الحقوق مثل حق الانتخاب[24]، إلا أن المجتمع السوري لا يزال ينظر للمرأة عموماً نظرة دونية، ويعتبر بكارتها رمزاً لشرفها وشرف عائلتها ودلالة عليهما وأي مساس بهذا الشرف قد تدفع ثمنه النساء حياتهن[25]. الأمر الذي التقطته أجهزة السلطة جيداً، حيث خصصت جهودها القمعية للنيل منها، بصفتها النقطة الأضعف[26] في جسد المجتمع السوري والتي يمكن من خلالها ضرب المجتمع كاملاً وتأديبه وإرهابه، ثم إخراسه.
وقد شهدت السنوات القليلة بعد استقرار حكم الأسد الأب، وبدءاً من عام ١٩٧٧ اعتقال أعضاء من رابطة العمل الشيوعي على خلفية مواقفهم المنتقدة للقمع والفساد وإدانتهم للتدخل العسكري في لبنان ومن بينهم ١٢ امرأة غالبيتهم من الطالبات الجامعيات[27].

وفي بداية الثمانينيات اعتُقلت العشرات من النساء بتهمة الانتماء لتنظيم الإخوان المسلمين وحزب البعث الموالي للعراق، واللواتي تعرضن لشتى أنواع التعذيب ومنهن حوامل وقاصرات.
وما إن انتصر النظام في حربه ضد حركة الإخوان المسلمين في بداية الثمانينيات[28] حتى بدأ يركز جهوده القمعية على معارضيه[29] من القوى اليسارية والعلمانية والنخبة المثقفة ومن كل التجمعات ذات الطابع المدني، ولم يسلم من بطشه لا صغير ولا كبير، من تلامذة المدارس إلى كبار السن رجالاً كانوا أم نساء.

وتبقى حملة الاعتقال عام ١٩٨٧ هي الأبرز، حيث اعتقلت أكثر من ١٠٠ امرأة بسبب انتمائهن وصلاتهن مع حزب العمل الشيوعي، بقيت العشرات منهن لسنوات عدة في المعتقل دون أية محاكمة.

في خطاب القسم[30] عند توليه السلطة بعد وفاة والده عام ٢٠٠٠، وعد بشار الأسد السوريين والسوريات بإرساء الديمقراطية واحترام الرأي الآخر، فاستبشر به السوريون خيراً، الأمر الذي شجع شخصيات من المعارضة الديمقراطية السورية على تأسيس المنتديات السياسية[31] وإطلاق الحوار والمبادرات فيما سميّ بـ «ربيع دمشق»[32] على الرغم من عدم رفع حالة الطوارئ، لكن سرعان ما تم وأد تلك التجربة[33] واعتقال قادتها والحكم عليهم بالسجن بين ٥ إلى ١٠ سنوات، وتهديد كل من شارك وناصر هذا الربيع من الرجال والنساء بالاعتقال. استمرت الاعتقالات في السنوات اللاحقة لتطال كل صوت معارض وكل مناصري حقوق الإنسان والديمقراطية وحتى المدونين والمدونات[34] وناشطي وناشطات المجتمع المدني[35].
لم تمنع سياسة البطش والاعتقال والترهيب الممنهج، الشعب السوري من التمرد ورفض الواقع القائم، حيث انطلقت في آذار عام ٢٠١١ الثورة السورية[36] المطالبة بالديمقراطية والعدالة، رافعة شعارات الحرية والكرامة والتي قابلها النظام بالرصاص الحي وبالاعتقال والتغييب القسري، حيث جرت الاعتقالات المترافقة بالعنف المفرط على مرأى ومسمع من السوريين والسوريات كافة وعلى مرأى من العالم أجمع[37] ، بعد نقلها عبر كاميرات هواتف الناشطات والناشطين، بما في ذلك حملات الاعتقال التي طالت عشرات الآلاف من النساء السوريات[38] ، اللواتي شاركن في الثورة، أو ينتمين إلى المناطق المنتفضة أو إلى عائلات ثائرة[39].
وللالتفاف على ما يمكن اعتباره رفضاً دولياً لاستمرار حالة الطوارئ المعمول بها منذ عشرات السنين، بادر بشار الأسد ظاهرياً لإلغائها وأوقف تحويل الجرائم السياسية إلى محكمة أمن الدولة[40]، لكنه استعاض عن ذلك بما هو أسوأ، بمحكمة استثنائية أطلق عليها مسمى «محكمة الإرهاب» مدعومة بقانون مكافحة الإرهاب[41] رقم / ١٩ / لعام ٢٠١٢ الذي وفر له كنص تشريعي، الغطاء القانوني للتخلص من عشرات الآلاف من معارضيه الذين وصمهم بالإرهاب[42] والذين تم إعدامهم في ساحات المحاكم العسكرية وفي سجونه المعدة لهذا الغرض[43].

ومع إصرار الشعب السوري على المضي قدماً والاستمرار في انتفاضته، على الرغم من ازدياد معدلات القتل والتهجير وتدمير المدن والبنى التحتية[44] واستخدام كافة الأسلحة المحرمة دولياً[45] كالسلاح الكيماوي[46]، استمر النظام في سياسة الاعتقال التعسفي والإخفاء القسري، وتم توثيق ارتكاب مختلف الأجهزة الأمنية السورية لجرائم التعذيب والقتل ضد المعتقلات والمعتقلين والتي ترقى إلى جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب[47]، حيث قضى فيها الآلاف كما تظهر صور «قيصر»[48] ، إما تحت التعذيب، أو قهراً أو مرضاً أو إهمالاً أو جوعاً منذ عام ٢٠١١ وحتى اليوم[49].

6- حافظ الأسد يقود انقلاباً على نور الدين الاتاسي – مقال ل ماهر حسن- المصري اليوم. https://www.almasryalyoum.com/news/details/95583

7- كيف تخلص حافظ الأسد من رفاقه الأربعة واستولى على الحكم. https://www.youtube.com/watch?v=5N8sdNzqgJg

8- لا يوجد أرقام أو احصاءات عن عدد السجناء السياسيين في عهد حافظ أسد بسبب إخفاء المعلومات وبسبب عدم وجود انترنت ووسائل الاعلام في ذلك الوقت.

- هيومن رايتس وتش- اعتقال سياسي لأجل غير مسمى في سوريا . 1/11/1992 https://www.hrw.org/report/1992/11/01/throwing-away-key-indefinite-political-detention-syria

9- نص قانون حالة الطوارئ الصادر بالمرسوم التشريعي رقم (15) تاريخ 22/12/1962 https://www.shrc.org/?p=7450

10- المرسوم رقم 47 لعام 1968 الذي استحدث محكمة أمن الدولة العليا. https://www.shrc.org/?p=25466

المرسوم 14 لعام 1969 المتضمن إحداث إدارة المخابرات العامة والذي منح العاملين فيها حصانة ضد الملاحقة القضائية تجاه الجرائم التي يرتكبونها أثناء أدائهم لعملهم إلا بأذن خاص من مدير ادارة المخابرات ولم ينشر هذا المرسوم في الجريدة الرسمية،http://www.shrc.org/?p=7451

المرسوم التشريعي رقم 549 لعام 1969 وهو قانون التنظيمات الداخلية لإدارة أمن الدولة والذي نص على عدم ملاحقة العاملين فيها والمندوبين والمعارين والمتعاقدين معها مباشرة أمام القضاء في الجرائم الناشئة عن الوظيفة أو معرض قيامهم بها قبل احالته على مجلس التأديب في الادارة واستصدار أمر ملاحقة من قبل المدير http://www.shrc.org/?p=9298

11- موقع جيرون - أسماء ومهمات الأفرع الأمنية المتنوعة - الأستاذ أنور البني https://geiroon.net/archives/72521

- تقرير هيومن رايتس وتش – كشف النقاب عن مراكز التعذيب في سوريا تاريخ 3/7/2012 https://www.hrw.org/ar/news/2012/07/03/246821

12- تقرير هيومن رايتس وتش- بعيداً عن العدالة – 24/2/2009 (بعد أربعين عاماً من تشكيل محكمة أمن الدولة العليا ما زالت إحدى بؤر القمع في سوريا)
https://www.hrw.org/ar/report/2009/02/24/255871

13- موجز منظمة العفو الدولية – الاعتقال السياسي، التعذيب والمعاملة المهينة واللإنسانية – الاخفاء والقتل السياسي بتاريخ 1/11/1983
https://www.amnesty.org/download/Documents/200000/mde240131983en.pdf

14- شبكة شام– حافظ الأسد والدولة الأسدية – ياسين الحاج صالح 17/10/2016 https://bit.ly/2LLqtjK

15- موقع تلفزيون سوريا- تفاصيل مجزرة سجن تدمر في ذكراها ال -39تاريخ 27/6/2019 https://bit.ly/36r2vSC

16- موقع بي بي سي الاخباري – داخل تدمر: أحد أسوأ سجون العالم – شهادة سلامة كيلة تاريخ 2/6/2015
https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2015/06/150620_syria_inside_tadmur_prison

17- موقع تلفزيون سوريا – مجزرة حماه..37 عاماً على ذاكرة الرعب والدم- 3/2/2019 https://bit.ly/35jp4bC

18- تلفزيون الجزيرة- مقابلة مع روبرت فيسك في ذكرى مجزة حماه – تاريخ 2/2/201 2https://www.youtube.com/watch?v=X8dSFeWxRnI&feature=youtu.be

19- موقع عنب بلدي- ستة أحداث تلخص مجزرة حماه بعد 35 عاماً- 2/2/2017 https://www.enabbaladi.net/archives/128710

20- موقع نور سورية- مشاهد حقيقية من مجزرة حماه – تاريخ المادة 5/2/2012 https://syrianoor.net/article/82

21- نيغاتف - من ذاكرة المعتقلات السوريات – رواية توثيقية ل روزا ياسين حسن – تكشف عن معاناة المعتقلات السياسيات داخل السجون السورية – مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان 2008 – يمكن تحميل الرواية على الرابط التالي: https://www.goodreads.com/book/show/12380284

22- تقرير منظمة اليوم التالي: التمييز ضد المرأة في المجتمع السوري- إدراك العنف الأسري – تاريخ آب 2017 https://www.tda-sy.org/uploads/posts/pdf/GvxtrmDySBAUW9haPsO2WcO05DvAhGcdWDK6eMZP.pdf

23- منظمة اليوم التالي- العدالة الانتقالية الحساسة للجندر في سورية- بحث لمى قنوت بتاريخ سبتمبر 2019
https://tda-sy.org/ar/content/228/652/reports-&-research/gender-sensitive-transitional-justice-in-syria?fbclid=IwAR0hKcoovdMolbV2zIeXp7gQ_a1RJrMPIMaQYxegZypojC9IawUy607S_F4

24- حصلت المرأة السورية على حقها في الانتخاب عام 1948، وكان مشروطاً في البداية بحصولها على الشهادة الابتدائية، ثم حصلت على حق الترشح عام 1953 وأزيل حينها شرط الحصول على الابتدائية لحق الانتخاب.

25- موقع شبكة جيرون- المرأة بين سلطة القانون وسطوة المجتمع – رنا جاموس- 2/11/2018 https://geiroon.net/archives/140811

26- موقع شبكة المرأة السورية – اعتقال النساء احدى وسائل الضغط والمساومة – سحر حويجة 24/1/2015 http://swnsyria.org/?p=2536

27- موقع شبكة المرأة السورية - خياري الأول والاخير سوريا حرة ديمقراطية – ناهد بدوية تاريخ 22/1/2016 https://bit.ly/2RLuBUH

28- اللجنة السورية لحقوق الإنسان – الاعتقال السياسي في سوريا https://www.shrc.org/?p=8666

29- اللجنة السورية لحقوق الإنسان عن تقرير منظمة العفو الدولية – تعذيب ويأس وتجريد من الإنسانية – تاريخ 13/9/2001 https://www.shrc.org/?p=21358

30- كلمة بشار الأسد أمام مجلس الشعب بعد أدائه القسم تاريخ 17/7/2000 https://www.youtube.com/watch?v=dsNwHs9B6RI

31- الحياة – قصة ربيع دمشق من خلال منتدياته وتجاربها – دز رضوان زيادة 24/4/2005 http://www.alhayat.com/article/1250250

32- مركز كارنيغي للشرق الاوسط – ربيع دمشق https://carnegie-mec.org/syriaincrisis/?fa=48518

33- موقع تلفزيون سوريا - حين رفض النظام أن يغير جلده: نهاية ربيع دمشق – وائل سواح تاريخ 1/8/2018 https://bit.ly/2PepvOO

34- موقع جيرون – كي لا ننسى طل الملوحي – الاستاذ ميشيل شماس – 4/7/2017 https://geiroon.net/archives/87631

35- تقرير هيومن رايتس وتش – العقد الضائع – حالة حقوق الإنسان في سوريا خلال السنوات العشر الأولى من حكم بشار الأسد – تاريخ 16/6/2010 https://www.hrw.org/ar/report/2010/07/16/256102

36- موسوعة الجزيرة – الثورة السورية – شوهد في 27/10/2019 https://bit.ly/2PcxnjU

37- يوتيوب – الجزيرة - فيلم وثائقي يرصد المراحل المفصلية في مسار الثورة السورية وتطور الموقف الدولي https://www.youtube.com/watch?v=VJK1djCRvu8

38- تشير تقديرات الشبكة السورية لحقوق الإنسان إلى ان 1.2 مليون مواطن/ة سوري/ة على الاقل مروا بمحنة الاعتقال منذ عام 2011 إلى آذار 2019 وإلى أن 127916 شخص لايزالون قيد الاعتقال والاختفاء القسري من بينهم 7721 امرأة حتى آذار 2019. http://sn4hr.org/arabic/2019/03/11/10925/

39- موقع تي أر تي – حكايا ناجيات من الاعتقال في سوريا – سونيا العلي 27/8/2019 https://bit.ly/2EdDPkx

40- هيومن رايتس وتش- بعيداً عن العدالة – محكمة أمن الدولة العليا السورية – تاريخ 24/2/2009 https://www.hrw.org/ar/report/2009/02/24/255871

41- قانون مكافحة الارهاب – القانون رقم 19 لعام 2012 https://menarights.org/sites/default/files/2016-11/SYR_CounterTerrorism3laws_2012_AR.pdf

42- مركز توثيق الانتهاكات – محكمة الارهاب في سوريا – أداة تنفيذ جرائم حرب – نيسان 2015http://www.vdc-sy.info/pdf/reports/1430186775-Arabic.pdf

43- تقرير منظمة العفو الدولية- سوريا المسلخ البشري: عمليات الشنق الجماعية والابادة الممنهجة في سجن صيدنايا – تاريخ 7/2/2017
https://www.amnesty.org/ar/documents/mde24/5415/2017/ar/

44- تقرير هيومن رايتس وتش – وابل من البراميل المتفجرة – تاريخ 30/6/2014 https://www.hrw.org/ar/news/2014/07/30/254714

45- بي بي سي – كيف استخدم الأسد السلاح الكيماوي لتحقيق انتصارات عسكرية 17/10/2018 https://www.bbc.com/arabic/middleeast-45878914

46- مركز توثيق الانتهاكات – تقرير خاص حول استخدام الأسد للسلاح الكيماوي في محافظة ريف دمشق 22/8/2013
http://vdc-sy.net/wp-content/uploads/2018/02/chemical-weapons-east-ghouta-22-august-2013.pdf

47- تقرير النيويورك تايمز- داخل سجون التعذيب السرية: كيف سحق بشار الأسد المعارضة- تاريخ 22/7/2019 https://www.nytimes.com/ar/2019/07/22/world/middleeast/syria-torture-prisons.html

48- الحياة 27- الف صورة تعذيب جديدة من قيصر السوري إلى القضاء الالماني تاريخ 22/9/2017 http://www.alhayat.com/article/888086/سياسة/العالم/-27ألف-صورة-تعذيب-جديدة-من-قيصر-السوري-إلى-القضاء-الألماني

49- تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان –توثيق 72 أسلوب تعذيب لايزال النظام السوري مستمراً في ممارستها في مراكز الاحتجاز والمشافي العسكرية التابعة له – تاريخ 21/10/2019
http://sn4hr.org/arabic/2019/10/21/11639/

الجزء الأول:
الاعتقال السياسي

لا يمكن اعتبار الاعتقال السياسي في سوريا إلا اعتقالاً تعسفياً[50] وإخفاءً قسرياً[51]، إذ يتم إخفاء المعتقل/ة لأشهر، قد تطول لسنوات، يمنع خلالها المعتقل من حق معرفة مكان اعتقاله والتهم الموجهة اليه، ويحرم ذوه من زيارته وبالتالي معرفة إن كان حياً أو ميتاً، ويخضع المعتقل/ة لتحقيق مترافق مع التعذيب وسوء المعاملة لانتزاع الاعترافات، بالإضافة إلى العزل والحرمان من كل الضمانات القانونية والمحاكمات العادلة، والحد الأدنى من الشروط الصحية والإنسانية[52].

اعتقلت كل شاهداتنا وشهودنا نتيجة لنشاطهن/م السياسي أو كرهينات بسبب نشاط ذويهن وبذلك تعرضن/وا لمجموعة من الانتهاكات الجسيمة منذ لحظة الاعتقال الأولى، إذ تم اختطاف بعضهن/هم من الشارع وتم تغييب معظمهن/م قسرياً خلال فترة التحقيق دون أن يعرف ذويهن/م خبراً عن مكان تواجدهن/م. غُيب غالبيتهن/م لسنوات طويلة في السجون دون أي محاكمة ودون معرفة متى يطلق سراحهن/م، أما شاهداتنا اللواتي حكمن من خلال محاكم استثنائية[53]، فقد غابت عن هذه المحاكم كل شروط العدالة والأخذ بالأدلة وبقين لسنوات في السجن، حتى بعد انتهاء سنوات حكمهن.

١-طرق الاعتقال ومدته

تنحفر في ذاكرة المعتقلة/المعتقل لحظة الاعتقال كلحظة فارقة بين زمنين، فهي اللحظة التي وصفها معظمهن/م بأنها لحظة الدخول في نفق مظلم لا أمل بالخروج منه، لحظة تنتزع فيها إنسانيتهن/م ويصبحون عرضة لكل المخاطر بما فيها خطر الموت والغياب إلى الأبد، حيث بدأ حديث معظمهن/م من تلك اللحظة؛ من الألم الذي تتسبب فيه هذه الذكرى، الرعب الذي رافقها إذ أن الأجهزة الأمنية تتعمد إظهار كم هائل من الرعب في المحيط عند الاعتقال، ليكون أسلوب الاعتقال وطريقته، ليس فقط عاملاً في انهيار المعتقلة/المعتقل نفسياً قبل بدأ التحقيق، بل درساً لكل المجتمع ولمن تسول له نفسه، فيما بعد، تجاوز المحظور والاقتراب من الشأن السياسي.

«حاصروا مدرستي وطوقها بالدبابات، حتى الآن أذكر أنني كنت أقدم امتحاناً في مادة القومية... حين عرضوني على المحكمة الميدانية كان عمري ١٥ عاماً وأربعة أشهر». (لمى)
اعتقلت لمى[54] من مدرستها الثانوية في حلب عام ١٩٨١ وهي بعد لم تكمل السادسة عشرة من عمرها وبقيت تسع سنوات في المعتقل، عند سؤالها عن التهمة التي وجهت لها أجابت أنها حتى اليوم «لا تعرف».

«اعتقلوني من الشارع؛ ركضت، لاحقوني ... بدأت أحتمي بالمارة ... حين قالوا للناس: ‘نحن رجال أمن’، هرب الجميع. الناس تخافهم... وغالبيتهم تخشى حتى متابعة مشهد الاعتقال من بعيد... في اعتقالي الثاني عام ١٩٨٤ جاؤوا إلى البيت واقتحموه بعنف واعتقلوا ضيوفي... ظلوا معتقلين لأسابيع قبل إطلاق سراحهم».. (سارة)
حين اعتقلت سارة[55] عام ١٩٨٢ قام عناصر الأمن العسكري بجرّها في أحد شوارع مدينة دمشق بطريقة مذلّة، أما في اعتقالها الثاني عام ١٩٨٤ فقد اعتقلوها من بيتها واعتقلوا معها أصدقاءها الذين كانوا في زيارتها.

يقول محمد: «طوقوا الحارة بعدد كبير من السيارات... أكثر من ٤٠ عنصراً مسلحاً داهموا بيتنا... بدأوا بضربي عند باب البناء... لم يحترموا مشاعر أهلي أو الجيران ... كان عمري ١٧ عاماً، قالوا لأمي جملتهم المعتادة: ‘خمس دقائق وسنعيده’». (محمد)
شهدت عائلة محمد وجيرانه رعباً هائلاً عند اعتقاله عام ١٩٨٠، كان محمد[56] في السابعة عشرة من عمره حينها وبقي في المعتقل ١٣ عاماً.

«كنت في غرفة الصف حين جاؤوا لاعتقالي.. أرسل المدير في طلبي، سألتهم ماذا تريدون، أجابوا بعنجهية: 'ستعرفين ذلك حين نصل إلى فرع الأمن'... صادروا كل أوراقي بما فيها قائمة بأسماء التلاميذ المشاركين في الرحلة، لم يعاملوني بقسوة أمام المدير لكن حين صرت في سيارتهم، وبين اثنين منهم، اختلف كل شيء».. (سوسن)

كانت سوسن[57] تعمل عند اعتقالها معلمة صف في مدرسة ابتدائية في اللاذقية، تتذكر لحظة وصول عناصر الأمن لاعتقالها وقد لاحظت وصولهم من نافذة الصف، حاولت ألا تبدي قلقها أمام تلامذتها الصغار وأن تكمل الدرس لكنهم، سرعان ما طلبوها إلى غرفة مدير المدرسة.

مع انطلاقة الثورة عام ٢٠١١ أصبح الاعتقال التعسفي والإخفاء القسري للناشطات والناشطين وكل من يشتبه بتأييده للثورة من أهم الأدوات القمعية التي استخدمت في قمع الثورة وكسرها، حيث استمرت الأجهزة الأمنية بممارسة وحشيتها في طريقة الاعتقال وأسلوبه ليس فقط على مرأى السوريين بل على مرأى العالم أجمع.

تروي ليال[58] مشهد اعتقالها كأنه يحدث الآن: «على جسر الرئيس في دمشق توقف رجلا أمن وطلب أحدهما هويتي... بدآ بضربي في الشارع... كان الازدحام شديداً، جروني إلى «البراكيّة»٥٩ التي تبعد عشرات الأمتار، ولم يتوقفا عن ضربي ... سيدة مسنّة كانت تمرّ إلى جانبي... صارت تبكي.».

«... حين وصلت «البراكيّة» قال أحدهم: جيد أنك صرت هنا فنحن منذ زمن طويل لم نلمس نساءنا... هناك وضعوا معي شاباً معتقلاً أيضاً... كان يدخل أحدهم كل حين ليبصق علينا ويخرج ...»

تتحدث ليال عن شعورها بالخذلان من صمت الناس الذين كانوا شهوداً عند اعتقالها، إذ أنهم لم يصدروا أي صوت احتجاج على إذلالها، ما يفسر حالة الرعب الشديدة التي يعيشها هؤلاء الناس وما يختزن في ذاكرتهم من تداعيات مؤلمة في حال فكروا بنصرة ليال أو أي شخص يطاله الاعتقال. كما تصف شعورها الرهيب بالخوف عند سماع عناصر الأمن يتحدثون عن فرحتهم بوجودها في «البراكية» تعويضاً عن نسائهم، في إشارة واضحة، كما تقول، إلى حاجاتهم الجنسية، حيث اعتبرته بمثابة تهديد علني بالاغتصاب.

تتحدث يارا[60] عن اعتقالها للمرة الرابعة عام ٢٠١٦ من خلال مداهمة منزلها، حيث كانت تقيم مع عائلتها:

«خلعوا باب البيت ودخلوا... كانوا ١٥ عنصراً مدججين بالسلاح ... كنت في غرفتي، اقتحموها متجاهلين طلب أبي بمنحي بعض الوقت لتبديل ملابسي... فتشوا البيت مع تخريب متعمد... خربوا حتى أبجورات النوافذ»

50- تعريف الفريق العامل المعني بالاحتجاز التعسفي- متى يعتبر الاعتقال تعسفياً، صفحة 6 https://www.ohchr.org/Documents/Publications/FactSheet26ar.pdf

51- منظمة العفو الدولية – الاختفاء القسري نظرة عامة – المشكلة. سوريا: نعرض 82 الف شخص للاختفاء القسري منذ عام 2011. https://www.amnesty.org/ar/what-we-do/disappearances/

52- منظمة العفو الدولية – دليل المحاكمات العادلة. الطبعة الثانية 2014 https://www.amnesty.org/download/Documents/8000/pol300022014ar.pdf

53- موقع جيرون – القضاء الاستثنائي: مقال للأستاذ حبيب عيسى 26/11/2016 https://geiroon.net/archives/71699

هيومن رايتس وتش- بعيداً عن العدالة – محكمة أمن الدولة العليا السورية – 24/2/2009 https://www.hrw.org/ar/report/2009/02/24/255871

54- لمى: تولد حلب عام 1965 اعتقلت وقد كانت طالبة في المرحلة الثانوية عام 1981، مثلت أمام المحكمة الميدانية وحكمت بخمس سنوات وتم تخفيض المدة إلى أربع سنوات لأنها كانت قاصراً، لكنها بقيت في المعتقل مدة تسع سنوات إلى حين إطلاق سراحها عام 1990.

55- سارة: مواليد دمشق اعتقلت من قبل فرع الأمن العسكري في دمشق مرتين بتهمة الانتماء لحزب العمل الشيوعي؛ المرة الأولى عام 1982 ثم أخلي سبيلها عام 1983 وأعيد اعتقالها عام 1984 وبقيت في المعتقل حتى عام 1991 دون أي محاكمة.

56- محمد: مواليد حلب 1963. اعتقل من منزله في 1 أيار 1980، من قبل أمن الدولة بحلب، بتهمة الانتماء لحركة الإخوان المسلمين. حكم بالإعدام من قبل المحكمة الميدانية التابعة لفرع التحقيق العسكري بحمص. لم يتم تنفيذ الحكم لأنه كان قاصراً، ثم تم تحويله إلى سجن تدمر ليقضي فيه 8 سنوات، ليتم تحويله فيما بعد إلى سجن صيدنايا ليكمل 13 عاماً في المعتقل ويطلق سراحه عام 1993.

57- سوسن: اعتقلت عام 1987 من قبل الأمن العسكري بتهمة الانتماء لحزب العمل الشيوعي ونقلت إلى فرع فلسطين في دمشق وبقيت في المعتقل حتى أطلق سراحها في 1991.

58- ليال: تولد حمص 1993 اعتقلت في دمشق عام 2012، حيث أمضت 63 يوماً بين الفرع 215 وفرع المخابرات العسكرية في حمص وتعرضت خلالها لشتى أنواع التعذيب بالإضافة للعنف الجنسي.

59- البراكيّة: غرفة مؤقتة تبنى إلى جانب الحاجز العسكري، داخل المدن أو بين الأحياء والمناطق، من أجل استخدامها من قبل العناصر، لكنها في كثير من الأحيان تتحول إلى سجن مؤقت للنساء والرجال، وفي كثير من الحالات تستخدم كغرف للتعذيب والاغتصاب والإهانة والإذلال والمساومات، وكمستودعات للمواد التي تنهب من المارين على الحاجز لأسباب مختلفة.

60- يارا: تولد 1990، اعتقلت أكثر من مرة خلال الثورة بسبب نشاطها الاغاثي ونقلها المساعدات الطبية للمناطق المحاصرة في ريف دمشق. اعتقالها الاخير كان من قبل فرع أمن الدولة في دمشق في تموز عام 2016 ، أطلق سراحها بعد ستة أشهر عبر صفقة تبادل ورُحلت إلى إدلب.

مع مطلع الثمانينيات ومع تكشير النظام عن أنيابه، لم تعد الأجهزة الأمنية تكتفي باعتقال المعارضات والمعارضين وإخفائهم لفترات قصيرة، بل لجأت للعقاب الأكثر ايلاماً؛ ترك أعمارهم تذبل في الانتظار وهم يعدّون سنوات السجن التي لا يعرفون متى ستنتهي.

> «ثماني سنوات من عمري أمضيتها في المعتقل دون محاكمة ودون معرفة متى سيطلق سراحي..
> قالها لي الضابط المسؤول في فرع التحقيق: «سوف تتعفنين في السجن...!» (سارة)
> اعتقلت سارة في حزيران عام ١٩٨٢ وأُطلق سراحها في آذار ١٩٨٣، ثم أعيد اعتقالها في آذار ١٩٨٤ لتبقى في السجن حتى نهاية ١٩٩١.

> «عام ١٩٨٠ اعتُقل الكثير من السياسيين.. خرجت من السجن بعد أربع سنوات وبقي الكثيرون لسنوات طويلة بعد خروجي ومنهم من لايزال يقبع في السجون.. قبل حافظ الأسد لم يكن الاعتقال السياسي يخيفنا... أُعتقل اخوتي وكثير من أصدقائي قبلي ولبثوا مدة قصيرة وخرجوا... حافظ الأسد لم يكتف باعتقال المعارضين له، بل سرق أعمارهم». (أكرم)[61]

> بقيت عزيزة[62] التي اعتقلت كرهينة عن زوجها ١١ عاماً دون أن تعرض على محكمة أو تعرف متى يمكن إطلاق سراحها.
> «بقيت في السجن ١١ عاماً دون أيّة تهمة ودون محاكمة... كنت رهينة عن زوجي... لكن زوجي مات وهم كانوا يعرفون ذلك... كَبر أولادي وأنا في السجن، كبرتُ وضاعت أجمل سنوات عمري وأنا في السجن.. كل يوم كنت أقول سأخرج غداً... بالتأكيد لو عرفت سنوات حكمي لكان الأمر أسهل لي ولأولادي.».

> اعتقلت رحاب[63] مع مجموعة من المراهقين والمراهقات منهم اثنان من أفراد عائلتها، بسبب كتابات مطلبية على الجدران في بلدتهم: ووجهت لهم العديد من التهم منها، «تهديد أمن الدولة وزعزعة نظام الحكم» هكذا لخصت رحاب التهم التي كانوا يرفعونها في وجهها مع كل جولة تعذيب في الفرع.
> تقول رحاب: «بقيت في زنزانة في فرع فلسطين لمدة ستة أشهر، بعدها نقلوني إلى سجن مدني وبدأت جولة المحاكمات... كنت أنتظر الإفراج عني كل يوم... مرت سنتان وأنا أنتظر... حكم عليّ القاضي في جلسة النطق بالحكم بالبراءة... فيما حكم على الصغار بالسجن لسنتين بتهمة التشهير.».

توفي حافظ الأسد في ١٠ حزيران عام ٢٠٠٠ بعد ثلاثة عقود من حكمه وبعد أن مهد الطريق لابنه ووريثه، الذي ما لبث أن اتخذ نهج أبيه ذاته مستخدماً الاعتقال السياسي كوسيلة ناجعة في وجه خصومه ومنتقدي سياسته من قوى ونشطاء حقوق إنسان وتجمعات ومثقفين وطلبة.

> عام ٢٠٠٩ اعتقلت آيات[64] من كلية الآداب في دمشق، وكانت في سنتها الجامعية الأولى، بتهمة توزيع مناشير في الحرم الجامعي: بقيت معتقلة لمدة تسعة أشهر تنقلت فيها بين فرع الأمن السياسي وفرع فلسطين وتعرضت خلالها لأشد أنواع التعذيب.
> «بعد مضي ٩ أشهر وحين جاء أبي لتوقيع تعهد واستلامي قال له الضابط: 'احمد ربك أنها طلعت... لا يخرج من هنا سوى صاحب كل طويل عمر»

بعد اندلاع الثورة عام ٢٠١١ بدأ النظام السوري يتعامل مع نشطاء وناشطات الثورة بقمع ممنهج واعتقل مئات الآلاف من النساء والرجال وحتى الأطفال، قتل الآلاف منهم تحت التعذيب، فيما بقي عشرات الآلاف منهم مغيباً قسرياً[65] حتى اللحظة، منهم ٨ آلاف امرأة تقريباً لا يزلن مغيبات قسرياً حتى تاريخ كتابة هذا التقرير.

٢- معاناة مضاعفة

مع قسوة ظروف السجن والظرف النفسي والعائلي يصبح الشعور بالوقت أكثر قسوة وشدة على المعتقلات، أما الأمهات منهن، فمدة الاعتقال وتفاصيلها تصبح، مع مرور كل يوم، مخالب تنهش أرواحهن وهن بعيدات عن رعاية طفولة أبنائهن.

> في اعتقالها الأول عام ١٩٧٩ كانت عزيزة حامل بابنها الثالث حين خضعت للتعذيب وعلى الرغم من معرفة المحققين والجلادين بأنها حامل إلا أن ذلك لم يخفف أبداً من التعذيب الذي تعرضت له:
>
> «وضعوني في الدولاب وتناوبوا على ضربي... ضربوني لمدة ١٢ ساعة متواصلة، ثم وضعوا الكهرباء في أصابع قدميّ حتى أغميّ علي... كلما انتهت جولة تعذيب يأتي أحدهم ويقول: 'حتى الآن لم تري شيئاً مما ينتظرك!'... كنت أتسأل ماذا يمكن أن يحصل بعد! تمنيت أن يحدث أي شيء ليتوقف التعذيب... تمنيت لو أجهض جنيني... يعني تخيلي أنك تصلين إلى مرحلة تتمنين فيها موت ولدك من أجل أن يتوقفوا عن تعذيبك».
>
> في المرة الثانية عام ١٩٨٠ اعتقلت عزيزة مع أولادها الثلاثة وكان ابنها، الذي ولدته بعد اعتقالها الأول، مازال طفلاً رضيعاً فكان لا بد من أن يبقى معها في السجن، لم تخضع لمحاكمة أسوة بغيرها من نساء الإخوان، فهي اعتقلت في المرتين كرهينة لزوجها وكانت تنتظر أن يصدر قرار إطلاق سراحها كل يوم، لكن بمقدار ما كان وجود طفلها معها يخفف من قلقها كأم، وفق قولها، بمقدار ما كان يسبب لها كماً مرعباً من الإحساس بالذنب تجاهه.
>
> «بقيت في سجن حلب المركزي سبع سنوات وبقي صغيرهم معي، فقد كان رضيعاً حين اعتقلوني للمرة الثانية... أعطيته لأمي بعد أن أتم سنته الرابعة. كان ذلك خياراً صعباً فوجوده معي كان يؤنس وحشتي ويقلص الوقت الطويل، لكن لم يكن من حقي أن أبقيه أكثر، لأنها كانت ستكون جريمة بحقه... ذلك اليوم كان أقسى يوم في المعتقل... بقيت بعد خروجه شهراً كاملاً غير قادرة على الكلام.».

في حملة الاعتقالات عام ١٩٨٧ والتي طالت العشرات من الشبان والشابات من حزب العمل الشيوعي، جرى اعتقال للزوجين أحياناً وبقي الأطفال من أبنائهم مع أقربائهم بانتظار خروج أحدهما، بالنسبة لهؤلاء كان السجن عقوبة مضاعفة، بعض الأمهات بقين سنوات ممنوعات عن الزيارة وعن رؤية أطفالهن، وغالباً ما كانت الزيارة قصيرة ومرة واحدة في الشهر وتحت مراقبة شديدة، مما ترك ندوباً في ذاكرة أطفالهن.

> تقول لينا[67] التي اعتقلت أيضاً كرهينة لزوجها القيادي في حزب العمل الشيوعي عام ١٩٨٧:
>
> «كنت أرى ابنتي في منامي منكوشة الشعر، متسخة الثياب... في إحدى المرات ومع انتهاء الزيارة وبعد أن مضت مع جدتها إلى الباب المفضي إلى خارج الفرع وكان السجان يقودني من ذراعي في الاتجاه الآخر، صرخت «ماما!» استدرت لأجيبها، علّي أهدئ من روعها وأعدها بأني سأعود قريباً، لكن السّجان منعني وأمرني ألا ألتفت ... أعتقد أن الوضع الذي عاشته في غيابنا مازال يصم ذاكرتها... نزلت إلى الزنازين وأنا مليئة بالقهر والغضب... لازلت بعد كل هذه السنوات أحس بالذنب تجاهها».

61- أكرم: من مواليد مدينة السويداء عام 1954 اعتقل في شهر نيسان 1980 من مدينة حلب، على خلفية انتمائه لحزب العمال الثوري، حين كان طالباً في كلية هندسة العمارة، ثم تم ترحيله إلى فرع أمن الدولة في دمشق ليقضي فيه أربع سنوات، ثم يعاد إلى حلب ليطلق سراحه عام 1984.

62- عزيزة: تولد حلب، اعتقلت مرتين؛ المرة الأولى عام 1979 وكانت حاملاً، والمرة الثانية عام 1980، حيث بقيت 7 سنوات في سجن حلب المركزي تنتظر أن يطلق سراحها، لكنها نقلت إلى دمشق حيث أمضت سنتين في سجن دوما، ثم أعيدت عام 1990 إلى فرع الأمن العسكري في حلب ليطلق سراحها عام 1991.

63- رحاب: اعتقلت عام 1988 وأمضت ستة أشهر في زنزانة في فرع فلسطين ثم نقلت إلى سجن مدني بانتظار الإفراج عنها وحكمت بالبراءة حين أكملت سنتين وهي موقوفة ليطلق سراحها عام 1990.

64- آيات: اعتقلت عام 2009 بتهمة توزيع مناشير في الجامعة، تم اعتقالها من قبل فرع الأمن السياسي في المزة حيث بقيت شهر وتعرضت للتعذيب ثم تم نقلها إلى فرع الفيحاء ثم إلى فرع فلسطين وبقيت في المعتقل نحو تسعة شهور وقد اعتقلت لاحقاً عام 2012.

65- تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان "الاخفاء القسري سلاح النظام السوري الأكثر ألماً ووحشية"- ماتزال 7852 سيدة (أنثى بالغة) قيد الاعتقال أو الاخفاء القسري تاريخ 30 أب 2019
http://sn4hr.org/public_html/wp-content/pdf/arabic/At_least_98000_have_been_forcibly_disappeared_in_Syria_since_March_2011.pdf

66- الدولاب : هو الاطار المطاطي لعجلة السيارة حيث يستخدم كوسيلة تعذيب من خلال وضع المعتقل داخل الدولاب بحيث تلامس يداه قدميه وتمارس عمليات التعذيب المختلفة عليه

67- لينا: تولد حمص عام 1959، اعتقلت في آب 1987 من قبل فرع فلسطين على خلفية ملاحقة زوجها القيادي في حزب العمل الشيوعي. أطلق سراحها في أيلول 1990، وقد أمضت كل فترة اعتقالها في الفرع.

والحال يغدو أمراً مفهوماً أن تؤكد معظم المعتقلات اللواتي كن أمهات قبل اعتقالهن، بأنهن لم يفكرن بعد خروجهن من المعتقل بالعودة للعمل السياسي لأنهن أدركن أن الضريبة الأكبر سيدفعها أولادهن وأنهن لم يعدن قادرات على تحميلهم هذا العبء.

> تضيف لينا حول هذا الموضوع: «كان عمر ابنتي سنة ونصف حين اعتقلت أنا ووالدها... بقيت الصغيرة تتنقل بين بيوت عائلتينا كل حين حتى أطلق سراحي، بقينا أنا وهي ننتظر والدها ثماني سنوات، فيما بعد، حتى أُطلق سراحه.. أنا لم أفكر بممارسة أي نشاط سياسي في السنوات التي تلت إطلاق سراحي... فقط حين خرجت من سوريا وصرت بعيدة عن خطر الاعتقال عدت إلى النشاط السياسي... لم أكن أريد تكرار التجربة أبداً خوفاً على ابنتي.».

بعد انطلاقة الثورة اعتقلت الكثير من النساء من بينهن الحوامل، كما اعتقلت أمهات مع أبنائهن وبناتهن ليغدون جميعهن وبلحظة، مجرد أرقام في الأفرع الأمنية وفي السجون دون إيلاء أي انتباه لأوضاعهن الخاصة، حيث يمكن القول عند الحديث عن تجاربهن أن تلك الفترة من حياتهن كانت في منتهى القسوة وتركت آثار نفسية جسيمة عليهن وعلى أطفالهن.

> تقول يارا في شهادتها: «قالت لي السجانة: حين يسألك أحد عن اسمك تقولين ١٠٠٠... في غرفة مشفى الـ ٦٠١ التقيت ب الرقم ٩٩٥، تبادلنا الحديث هامسات، قالت لي اسمها، «أملى»، كررت لي هامسة أنها لم تفعل شيئاً، حتى أنها لم تخرج في مظاهرة... ذكرت لي أنهم حين اعتقلوها، قبل سنة ونصف من لقائي بها، كانت مرضعاً، فكانت تشتكي من الألم في ثدييها وترجو المحقق أن يتركها، لتعود وترضع صغيرها... فيقوم بتركيز الضرب على ثدييها مع تكرار جملة: «بدك ترضعي ابنك قلتي لي؟!»

هناك أمهات ولدن في السجن قبل الثورة وبعدها، وفي حالات وجود أقرباء للمرأة كان يتم إخراج الطفل من السجن بعد أن يبلغ سنة من عمره، لكن في حالة عدم وجود أقرباء فكان الطفل يبقى مع أمه في المعتقل حتى يطلق سراحها.

> «... عند نقلي من الفرع إلى سجن عدرا كان معي معتقلات حوامل ... أنجبت واحدة منهن في السجن طفلة أسمتها حنين... رفض مدير السجن أن يدخل لها الحليب والدواء وكانت مصابة باليرقان فتوفيت بعد ستة أيام من ولادتها».. (هالة)[68]

٣- رهينات ووسيلة للانتقام

استخدمت الأجهزة الأمنية النساء كرهينات على نحو ممنهج منذ الثمانينيات، وقد ورد على لسان بعض شاهداتنا أن النساء المعتقلات بتهم انتمائهن لحركة الإخوان المسلمين، اللواتي التقين بهن خلال فترات اعتقالهن، كنّ في غالبيتهن رهينات لذويهن من الرجال، وورد على لسان بعضهن أنه لم يكن هناك نساء منظمات فعلياً لدى تنظيم الإخوان المسلمين، ففي البيئات المحافظة لا رأي للنساء غالباً، ونادراً ما يمتلكن معلومات حول نشاط ذويهن السياسي أو العسكري.

> تتحدث وعد[69] عن النساء الذي صادف وجودهن في مهجع السياسيات في سجن دوما حين نقلت إليه عام ١٩٨٨:
> «في السجن التقيت بامرأة من ريف حلب، كانت في الستينيات من عمرها... كانت أميّة ولم تكن تعرف أي شيء في السياسية وكانت مصابة بالسكري وقد بدأ المرض يخطف بصرها رويداً رويداً... كانت رهينة عن زوجها الذي هرب إلى العراق، حين قابلتها كان قد مضى على اعتقالها ٥ سنوات».

> اعتقلت لونا كرهينة عن أختها التي كانت مطلوبة لدى الأجهزة الأمنية عام ١٩٨٧.
> «كانوا يسألونني طوال الوقت عن مكان أختي ويطالبونني أن أعطيهم معلومات توصلهم إليها... بقيت في السجن سنة كاملة.. كانوا يكررون لي قولهم أنّي أستحق هذا العقاب وأنهم سيحتفظون بي حتى تأتي أختي.

مع بداية الثورة لم يعد يكتفي النظام باعتقال النساء كرهينات بل أيضاً استخدمهن كوسيلة انتقام من البيئة الحاضنة للثورة، حيث قام باعتقال أعداد كبيرة من النساء على الحواجز بسبب اسم مكان الإقامة أو اسم العائلة على الهوية للانتقام من المناطق والمدن المتمردة، أو من العائلات التي ثارت بغالبية أبنائها ضد النظام. وقد وثقت منظمات حقوقية قيام النظام السوري بإجبار معتقلات[70] (بينهن فتيات لم يتجاوزن الثامنة عشرة من أعمارهن)[71] على الظهور على شاشة

التلفزيون والاعتراف بأنهن مارسن «جهاد النكاح» بطلب من ذويهن في صفوف الجيش الحر بهدف الانتقام والتشهير بهن.
وقد روت لنا معظم شاهداتنا المعتقلات خلال سنوات الثورة أنهن التقين في الأفرع الأمنية والسجون مع نساء لم يمارسن أي عمل سياسي، ولم يشاركن في أي تظاهرات.

> تقول رانيا[72] التي اعتقلت إثر مشاركتها في اعتصام سلمي من أجل إيقاف قتل المدنيين:
> «في فرع فلسطين كان معنا معتقلة صغيرة السنّ، وكانت حاملاً... حين كان يأتي السجان ليناديها إلى التحقيق كانت تنهار تماماً من شدة الخوف... أكثر من مرة كانت تعود من التحقيق مضروبة على بطنها ... كان المحقق يضربها بالكبل على بطنها... اعتقلوها لينتقموا من طليقها الذي انضم للجيش الحر مع أنها كانت متزوجة وحاملاً من رجل آخر...

> اعتقلت ماري[73] على خلفية نشاطها المدني والإغاثي في الثورة وتنقلت بين أفرع عديدة قبل أن ينتهي بها المطاف في سجن عدرا. عملت ماري داخل السجن على الدعم النفسي للسجينات، خاصة الأمهات والقاصرات منهن. تقول في شهادتها:
> «أكثر من ٨٠ بالمائة من النساء اللواتي التقيت بهن في المعتقل لم يكن لهن علاقة بالثورة ولم يمارسن أي نشاط... اعتقلن فقط لأنهن من مناطق منتفضة أو لأن رجالاً من عائلاتهن هم في الجيش الحر... التقيت بثلاث نساء في الفرع ٢٢٧ من داريا، كنّ معتقلات فقط لهذا السبب... وهكذا اعتقلوا نساء قادمات من دوما ومن مخيم اليرموك وغيرها من المناطق التي خرجت من تحت سيطرتهم... اعتقلوا نساء احتجزوهن على الحواجز... اسم مكان الإقامة على الهوية كان سبباً كافياً للاعتقال...»

لم يكتف النظام باعتقال النساء كوسيلة لمعاقبة البيئة الحاضنة للثورة بل كان يتعمد الإساءة لأخوات وزوجات وأمهات المعتقلين للانتقام منهم وإذلالهم.

> يقول منير[74] إنهم، خلال فترة سجنه، كانوا يروجون إشاعات عن زوجته، بأنها عاهرة، وهو مازاد من ألمي وقهري في المعتقل.
> «... في الفرع ٢١٥ طلبني الضابط للتحقيق، كان معه في الغرفة ضباط آخرين لم أراهم، لأني كنت مطمّش العينين.. قال لي الضابط في بداية حديثه: 'أنا حزين على وضعك، لو كنت مكانك، لقتلتها!'.. قلت له: خير!.. ما الذي حصل؟.. قال لي: زوجتك تمارس الدعارة ... نشروا هذه الشائعة بين المعتقلين في الفرع ... أحد المعتقلين نقلها لي وهو يعتذر مني.. وهو مازاد من ألمي وقهري في المعتقل».
> ويضيف منير حول كيف يتعامل عناصر الأجهزة الأمنية مع المعتقلين في كل مناسبة، حتى وإن كانت المناسبة هي نقلهم إلى المحكمة:
> «في طريقنا من الفرع الذي كنا معتقلين فيه إلى المحكمة وحين أصبحنا في الحافلة المكتظة، بدأ العناصر بتعذيبنا وشتمنا، بدأوا بالشباب الصغار أولاً، حيث كانوا يسألونهم: 'هل أنت متزوج؟' فإذا أجاب بـ'لا' كانوا يطلبون منه رقم أخته وهم يضربونه ويسخرون منه قائلين: «سنتصل بها.. نريد أن نتسلى معها»...
> يضيف منير الذي اعتقل عام ٢٠١٢ على خلفية مشاركته في الثورة وبقي لمدة سنتين في صيدنايا:
> «حين جاء دوري قلت له أنّي متزوج، فبدأ بضربي بأخمص بندقيته طالباً رقم زوجتي... قال لي: منذ زمن طويل لم تعاشرها، سأتصل بها لأقوم بذلك نيابة عنك.. استمر هذا الإذلال والشتم والضرب ونحن داخل المحكمة».

68- هالة: تولد دمشق 1967، اعتقلت عام 2013على حاجز العباسيين واقتيدت إلى فرع الخطيب حيث بقيت ثلاثة أيام، ثم نقلت إلى الفرع 215، حيث بقيت لمدة شهر تقريباً، ثم تم تحويلها إلى سجن عدرا لتقضي هناك ثمانية أشهر، وأطلق سراحها بعد دفع مبالغ كبيرة من المال.
69- وعد: تولد عام 1966عام اعتقلت عام 1987 من قبل فرع فلسطين بسبب انتمائها لحزب العمل الشيوعي حيث بقيت في الفرع فلسطين لمدة خمسة أشهر ليتم نقلها إلى سجن دوما حيث بقيت حتى إطلاق سراحها عام 1991.
70- تقرير الشبكة الأورومتوسطية لحقوق الإنسان- احتجاز النساء في سوريا سلاح حرب ورعب- 1/5/2015 https://euromedrights.org/wp-content/uploads/2015/05/EMHRN_Womenindetention_AR-FINAL.pdf
71- زمان الوصل، والدة روان قداح تروي قصة اعتقال ابنتها – 31/8/2014 https://www.zamanalwsl.net/news/article/52999
72- رانيا: مواليد السويداء عام 1990، اعتقلت في نهاية عام 2012، من قبل فرع فلسطين، مع مجموعة من صديقاتها على خلفية اعتصام سلمي يدعو إلى وقف العنف قمن به في دمشق، حيث بقيت 50 يوماً في المعتقل.
73- ماري: اعتقلت ماري بتاريخ 16 نيسان 2013 من فرع الهجرة والجوازات ونقلت إلى فرع المنطقة 227 ثم إلى فرع فلسطين ثم إلى سجن عدرا وأطلق سراحها بعد شهرين ونصف من اعتقالها، بعد أن دفع زوجها مبالغاً كبيرة في المقابل.
74- منير: اعتقل عام 2012 على الحدود اللبنانية السورية وتم تسليمه للفرع 215 على خلفية نشاطه في التنسيقيات، ومن ثم تم تحويله إلى المحكمة الميدانية وبعدها نقل إلى سجن صيدنايا حيث أمضى حوالي العامين.

٤- احتياجات النساء الخاصة في المعتقل

تظهر شهادات النساء المعتقلات في مرحلة حكم الأسد الأب أن موضوع الاهتمام بحاجات النساء الخاصة في مراكز الاعتقال كانت عموماً سيئة، لكنها تختلف من فرع لآخر بقياس السيء والأكثر سوءاً، وأن الحاجات الخاصة للنساء مثل الفوط الصحية والأدوية ومضادات الالتهابات والثياب كانت تقع غالباً على عاتق الأهل، حين يسمح لهم بالزيارة أو بإيداع مبالغ نقدية لدى إدارة السجن، غالباً ما تكون هذه مشروطة ووفق أمزجة المسؤولين، كما وتشير الشهادات أنه في فترات التحقيق الأولى تكون هذه الاحتياجات غالباً معدومة، وأجمعت المعتقلات في هذه الفترة إلى أن توفير الفوط النسائية غالباً يحتاج لشجاعة المعتقلات مع إحساس شديد بالإحراج حيث يتم التجاوب معهن مع الكثير من الإذلال والإهانات.

> تقول لينا التي اعتقلت في فرع فلسطين عام ١٩٨٧
> «...كان طلب الفوط النسائية بحد ذاته مشكلة وهمّاً فوق همومنا... كان علينا أن ندق على الباب ونطلبها بصوت عالٍ وكان غالباً يجيبنا السجان بصوت عال، ليسمع كل الرجال في المهاجع الأخرى إجابته التي تكون غالباً مصحوبة بإهانات لفظية وبسخرية».

في مراكز اعتقال نساء الإخوان، وخاصة في السنوات الأولى لم يكن يراعى أي من احتياجات النساء الخاصة أو أي رعاية طبية. فقد شهد سجن تدمر عام ١٩٨٢ ولادة طفلة قطعت النساء المعتقلات حبل سرتها بغطاء علبة معدنية وتمت الولادة، دون أي عناية طبية وتحت ظرف صحي ونفسي سيء للغاية للأم، وفق شهادات شاهداتنا ممكن التقوا بالأم في سجن دوما للنساء فيما بعد. بالإضافة إلى كل ذلك روت النساء المعتقلات لفترات زمنية طويلة عن الصعوبات في موضوع الاستحمام وانتشار القمل والجرب بين السجينات وعدم تجاوب إدارة الفرع لمطالبهن بتغيير البطانيات أو الحصول على أدوية علاج، والجدير بالذكر أنه غالباً ما تخجل النساء من ذكر الالتهابات النسائية والشكوى لطبيب الفرع أو للإدارة لأنها ستكون فرصة للإهانة والإذلال وحتى للتحرش.

في السجن المركزي في حلب عام ١٩٨١، احتجزت النساء في مهجع واحد، واستمر احتجاز بعضهن سنوات طويلة، كوديعة لدى الأمن السياسي والأمن العسكري في المدينة. ووفق وصف الشهود والشاهدات، كان مهجع النساء مفصولاً عن الممر بقضبان ومكشوفاً على مهاجع الرجال، فقامت المعتقلات بوضع ستار قماشي، كي يحصلن على بعض الخصوصية، لكن إدارة السجن نزعته عند أول فرصة:

> عزيزة: «... احتج المعتقلون من الرجال على سوء المعاملة وطالبوا بتحسين الوضع، فجاؤوا وضربوهم بشكل جماعي... كنا نحن في مهجع نساء وحيد بين مهاجع الرجال، كنا قد وضعنا ستاراً على القضبان الحديدية التي تفصلنا عنهم لضمان بعض الخصوصية ... في ذلك اليوم قاموا بنزع الستار وأغرقونا بالألفاظ البذيئة والشتائم... كان يجب أن نكون مكشوفات بالنسبة لهم ولم يكن من حقنا أن يكون لنا أية خصوصية».

> ويصف أسامة[75] المكان ذاته في شهادته عن السجن المركزي في حلب:
> «كان هناك تسعة مهاجع للرجال ومهجع للنساء... لم يكن مسموحاً للنساء بالخروج للتنفس معنا... كان المهجع مكشوفاً على المهاجع الأخرى عبر شبك حديدي... وضعت النساء ستاراً ليكون لهن بعض الاستقلالية... كان هناك سجانون يتعاملون معهن بفظاظة على مسامعنا رغم أن معظمهن كنّ قد أنهيّن فترة التحقيق».

> وتؤكد عزيزة التي اعتقلت في السجن المركزي بحلب على شهادة أسامة: «في السجن المركزي بحلب لم يكن مسموح لنا بالخروج للتنفس. كان هناك نافذة صغيرة نتنفس منها... بقيت هناك على هذه الحالة سبع سنوات ... لم يعد لدي أظافر من نقص الكلسيوم، إضافة للمشاكل الأخرى...».

على الرغم من أن سجن حلب المركزي هو سجن مدني، إلا أنه كما يبدو لم يكن أفضل من الفروع الأمنية التي يوضع فيها المعتقلون والمعتقلات في أقبية تحت الأرض ويحرمون من التعرض للشمس والخروج لباحات التنفس، خاصة بالنسبة للنساء. لكن جاء في العديد من الشهادات أن الخروج من الفرع إلى سجن مدني، حتى وإن كان دلالة على الإقامة الطويلة، إلا أنّه يعتبر، تحسناً في أوضاع المعتقلات/ين عموماً، فهن/م على الأقل يصبحون بعيدين عن ضغط الخوف من الاستدعاء للتحقيق كل حين، كما ويمكنهن/م التواصل بحرية مع زميلات/زملاء السجن، كذلك يحصلون على الحق في الزيارة ورؤية ذويهن/م، بالإضافة للعيش بشروط يومية صحية أفضل نسبياً من تلك التي في الفروع الأمنية.

> «كانت فرحتي كبيرة حين وصلت إلى سجن دوما بعد ستة أشهر من تواجدي في أقبية الفرع؛ حين تعرضت لأشعة الشمس واغتسلت بماء دافئ وشربت شاياً ساخناً في كأس زجاجي... أشياء عادية، لكن لا يعرف قيمتها إلا من يحرم منها» (وعد)

تتحدث ليلى عما كانت تفتقده في الفرع وهو احتياجها للإحساس بآدميتها قبل كل شيء،
«صعب جداً أن تكوني منقطعة عن الحياة... أن تتحولي فجأة من إنسانة حرة إلى إنسانة منزوعة عنك آدميتك... تعرفين أن الصباح أتى من قرقعة السياط وخبطها على الأبواب الحديدية.. من انسكاب المياه وصراخ السجانين وهم يشتمون كل شيء... ومن خلال طلب المعتقلين للتحقيق... هكذا فقط تدركين أنه صباح نهار جديد» (ليلى)[76]

غالباً ما اعتمدت المعتقلات على التداوي بالطرق البدائية في حالات الإصابة بالقمل أو بالالتهابات النسائية وباستخدام بدائل للفوط الصحية غير المتوفرة غالباً وكان وجود طبيبات بينهن يشكل فرصة ممتازة للتداوي والتخفيف من هذه المشكلات.

في فرع كفرسوسة التقت «لمى» بمعتقلات إسلاميات ويساريات وبعثيات يمينيات وغيرهن كما تقول. تروي لمى التي اعتقلت عام ١٩٨١ من قبل فرع أمن الدولة بحلب وجرى نقلها بعد أسبوع إلى فرع كفرسوسة في دمشق، حيث بقيت فيه حتى عام ١٩٨٦، نقلت بعدها إلى السجن المدني في قطنا:

«في المهجع في كفرسوسة كان معنا طبيبتان... طبيبة من الإخوان وطبيبة شيوعية... كنا حوالي ٢٢ امرأة في مهجع صغير.. كنا ننام على جانب واحد، فلا مساحة للحركة، ولم يكن يوجد نوافذ للمهجع، كان هناك 'شراقة' (محرك مع مروحة للتهوية) صوت محركها قوي جداً وكانت تعمل طوال الوقت، لأنه في حال توقفت، قد نموت اختناقاً., كان في المهجع حنفية عند المرحاض... كنا نستخدمها للحمام وللشرب ولغسل أدوات الطعام ولكل شيء ... طالبناهم بفوط نسائية، فرفضوا ... كنا نمزق ثيابنا الداخلية ونستخدمها ثم نغسلها لنستخدمها مرة ثانية... بقين على هذه الحالة خمس سنوات... كنا نطالبهم كل بضعة أيام بفتح باب الزنزانة لكي يتغير الهواء وكانوا يقومون بذلك تحت إلحاحنا الشديد، لكن سرعان ما يغلقونه بعد دقائق... بكل الأحوال كان ضجيجها رحمة لنا، فلو توقفت لكنا انهرنا من سماع أصوات التعذيب»

بعد ستة وعشرين عاماً من دخول لمى لسجن فرع أمن الدولة في كفرسوسة، اعتقلت الدكتورة فداء[77] وأمضت ٤٠ يوماً في الفرع ذاته الذي تحدثت عنه لمى أعلاه، وتحدثت أيضاً عن الأوضاع السيئة التي كان يعيشها المعتقلون والمعتقلات، كما ذكرت «الشراقة» ذاتها.

فداء: «رجوت عناصر الفرع أن يطفئوا الشراقة لمدة خمسة دقائق، كي نرتاح من ضجيجها المزعج، فأجابني: 'في الغرفة المجاورة هناك خمسون رجلاً، سيموتون جميعهم اختناقاً في حال توقفت لمدة خمس دقائق».

بعد ست وعشرين عاماً يبدو أن الظرف في الفرع لم يتحسن أبداً بل يمكن القول إنه ازداد سوءاً؛ فلا رعاية طبية مناسبة تقدم للمعتقلين والمعتقلات، ولا طعام يشبه الطعام، أما فيما يتعلق بحاجات النساء فتقول فداء:

«بسبب واسطة أحد أقاربي استطاعت عائلتي إدخال حقيبة ثياب لي، فيها بعض الشراشف. قمنا بتمزيق واحد منهم وعملنا منه فوطاً صحية للنساء. كان هناك نساء مضى عليهن سنة لم يكنّ قد بدّلن ملابسهن أبداً».

عند حديث معتقلات ما قبل الثورة عن ظروف الاعتقال ويومياته، غالباً ما لاحظنا لديهن إحساساً بالخجل، خاصة حين يتم التطرق لظروف معتقلات الثورة، فمنذ بداية عام ٢٠١١ ازدحمت الأفرع الأمنية وسجون النظام بالمعتقلات والمعتقلين وازداد وضع مراكز الاعتقال سوءاً، خاصة مع تزايد حجم الاعتقالات وانتشار الفوضى واتساع الصلاحيات حيث أصبح بإمكان أي عنصر أن يكون محققاً وجلاداً وقاضياً في الوقت ذاته، خاصة مع غياب المحاسبة وضمان الإفلات من العقاب.

تقول عبير[78]: «في الفرع ٢١٥ كنا نطلب فوط نسائية وكانوا يعطوننا، لكن بكميات قليلة... صديقاتي اللواتي اعتقلن في فرع الأمن الجوي -مطار المزة العسكري- ذكرن لي أنهن كن يجلسن طوال فترة الحيض على بطانية عسكرية واحدة حتى انتهاء فترة الحيض.

75- أسامة: تولد حلب 1960 اعتقل حين كان طالباً في جامعة حلب عام 1982 على خلفية انتمائه لحزب العمل الشيوعي وأطلق سراحه عام،1998 ثم اعتقل عدة مرات فيما بعد كان آخرها عام 2013 على خلفية نشاطه في الثورة.

76- ليلى: تولد السلمية، اعتقلت عام ١٩٨٧ من قبل فرع فلسطين في دمشق على خلفية انتمائها لحزب العمل الشيوعي، حيث تعرضت للتعذيب الشديد ثم نقلت إلى سجن دوما إلى أن أطلق سراحها عام ١٩٩١.

77- فداء: تولد حماة، اعتقلت من قبل فرع أمن الدولة على خلفية انتخابها رئيسة للمجلس الوطني لإعلان دمشق نهاية عام ٢٠٠٧ وبقيت في المعتقل حتى إطلاق سراحها عام ٢٠١٠.

78- عبير: مواليد دمشق عام ١٩٨٧ اعتقلت في دمشق في نهاية عام ٢٠١٢ واقتيدت إلى الفرع ٢١٥على خلفية مشاركتها في نشاط مدني شبابي وبقيت مدة ٣٣ يوم في الفرع المذكور.

وتروي ليال عن تعامل السجانين في الفرع ٢١٥ مع طلبات المعتقلات بالذهاب إلى الحمام:
«... بالنسبة لبعض السجينات أنا كنت قوية وبطلة لأنني استطعت مثلاً أن أدق الباب لأطلب أن أخرج إلى الحمام لأني كنت أعاني من الإسهال ولا أستطيع الانتظار ١٢ ساعة أخرى ليسمح لي بالذهاب إلى الحمام... تخيلي كم أنه طلب بسيط... بنظر المعتقلات الأخريات كنت أغامر بحياتي بقرع الباب».

أما في شهادة يارا حول التعامل مع احتياجات النساء الخاصة في فرع الأمن الجوي في دمشق فتقول:
«في اعتقالي الرابع أخذوني إلى الجوية /مطار المزة... من شدة الرعب، اجتني الدورة... فقلت لهم: عفواً أنا اجتني الدورة ومحتاجة لأشياء من أجل الحفاظ على نظافتي... نظر إلي وقال: 'يااااه اجتك الدورة، اااه.. صحيح أنت لديك دورة شهرية... طيب الآن سوف أريك كيف يمكنني أن أقطعها وأقطع معها نسلك النجس'ثم أحضر 'الأخضر الإبراهيمي'[79] وصار يخبطني به على أسفل بطني بعنف إلى أن وقعت على الأرض وبدأ يرفسني وهو يردد: 'هذا من أجل نسلك النجس ...»

٥- التمييز والاعتبارات الخاصة

يمكن القول، عموماً، أنه منذ دخول المعتقلة أو المعتقل إلى الفرع تسقط عنه كل هوياته وميزاته الأخرى وتبقى الصفة الوحيدة التي يتم التعامل معها هي اعتباره/ا عدواً أو مشروع عدو للسلطة ويصبح عرضة للشتم والإهانة والتعذيب من كل جهاز الفرع، لكن أشارت بعض الشهادات إلى فروقات في تعامل الأجهزة الأمنية مع بعض المعتقلات والمعتقلين مصدرها بعض الاعتبارات الخاصة.

نحاول في هذا الجزء من التقرير ومن خلال الشهادات التي حصلنا عليها أن نحدد ماهية الاعتبارات التي يمكن أن تأخذ بها الأجهزة الأمنية عند التعامل مع المعتقلات من النساء، حيث لوحظ في حالات كثيرة أن هذه الأجهزة تأخذ بالحسبان المنبت الطائفي للمعتقلة، خاصة في تجربة المعتقلات خلال الثورة، كذلك تميّز بينهن على أساس مظهرهن الخارجي أو مستواهن الاجتماعي والثقافي وحتى الاقتصادي أو الدعم الذي يحصلن عليه خارج المعتقل، إن كان من منظمات تطالب بهن أو من مناطقهن أو عائلاتهن، لكن لا يمكن تعميم هذه الاعتبارات على كافة المراكز الأمنية، فغالباً تحكمها أمزجة ضباط ورؤساء هذه المراكز ومساحة الصلاحيات المعطاة لهم.

بداية، أجمعت الشهادات على أن التعذيب الذي يتعرض له المعتقلون الرجال هو أشد وأقسى مقارنة بالتعذيب الذي تتعرض له النساء منذ الثمانينيات إلى يومنا هذا. كذلك أجمعت شهادات النساء والرجال من معتقلي الثمانينيات أن التعذيب والإذلال وحتى العنف الجنسي الذي تعرضت له النساء المعتقلات بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين كان أشد وأعنف من ذلك الذي تعرضت له النساء المعتقلات من التنظيمات اليسارية، كحزب العمل الشيوعي وغيره. ويمكن القول إن شاهداتنا من معتقلات الثمانينيات، حتى أولئك اللواتي تعرضن لتعذيب شديد، صرحن خلال شهاداتهن أنهن يخجلن اليوم من التحدث عن تجربتهن، فهي كما ذكرت معظمهن: «لا يمكن مقارنتها بقسوة وعنف ما تتعرض له المعتقلات منذ بداية الثورة حتى الآن».

تروي سوسن كيف أنهم ميزوها كمعتقلة امرأة عن المعتقلين من الرجال. وتتحدث عن المشهد الذي انحفر في ذاكرتها حين كان رجال الأمن ينقلونهم من فرع الأمن العسكري في اللاذقية إلى فرع فلسطين في دمشق عام ١٩٨٧:
«كنت أول من صعد إلى الحافلة لنقلنا من اللاذقية إلى دمشق... كنت المرأة الوحيدة... أجلسوني في مؤخرة الحافلة ثم بدأوا يجرون الشباب صعوداً إلى الحافلة... كنت أراهم... كانوا مقيدي الأيدي ومعصوبي الأعين... كانت رائحة الدم المتخثر تتصاعد من جروحهم ...»

وعلى الرغم من أنه ورد في بعض شهادات المعتقلات اليساريات في الثمانينيات أن النظام لم يفرق بين المعتقلات لا على خلفيتهن الطائفية ولا الاجتماعية بل على خلفية آرائهن السياسية، إلا أنه جاء في بعض الشهادات أن الأجهزة الأمنية راعت في بعض الحالات المركز الاجتماعي للمعتقلة، خاصة في طريقة الاعتقال.

تقول وعد: «لم يستخدموا معي العنف عند اعتقالي، حتى أن الضابط في فرع التحقيق العسكري في منطقتي رفض أن أصعد في سيارة فرع فلسطين مع العناصر القادمين من دمشق. قال لهم أن المنطقة صغيرة والجميع يعرف بعضهم البعض. صعدت في سيارة عادية مع ضابط وعنصرين... كان ذلك من حسن حظي طبعاً، فالرحلة في سيارتهم العسكرية وبين عناصر فرع فلسطين لا يمكن أن تكون سهلة أبداً... ربما كان السبب مركز أبي الوظيفي حينها... وربما مراعاة للمحيط الاجتماعي، حيث أن عائلتي معروفة اجتماعياً في بلدتنا الصغيرة...»

في الاعتقالات التي جرت في سنوات الثورة كان يتم فيها التمييز الطائفي بشكل فاضح، وورد في الكثير من الشهادات التمييز الطائفي المتعمد خاصة فيما يتعلق بمراعاة الهوية الأقلوية للمعتقل أو المعتقلة في مقابل الهوية الدينية التي ألصقها النظام بالثورة منذ بداياتها، لكي يصل في سنواتها الأخيرة إلى وصمها بالأسلمة ثم بالإرهاب.

> تقول ماري في شهادتها: «كنت بالصدفة لحظة اعتقالي ألبس بشكل أنيق... اسمي الذي تظهر فيه هويتي الدينية جعله يناقشني بلطف... حين أدخلني مدير السجن للمهجع قال للمعتقلات: 'شفتوا.. هيك الأكابر... المسيحية هم الناس الأكابر... ليسوا مثلكم'... في كل مرة كانوا يخرجوننا فيها إلى الحمامات كان يقف أحدهم في الممر حاملاً عصا ثخينة، ينهال بها تباعاً على المعتقلات.. كنت الوحيدة المستثناة من الضرب»

> كما وقد ورد في شهادة نبال[80] وهي من منبت طائفي أقلوي وقد اعتقلت عام ٢٠١٣ على خلفية دعمها لمناطق ريف دمشق المحاصرة، في ذلك الحين، من خلال تهريب المساعدات الإغاثية:
> «لم يستخدموا معي أساليب التعذيب التي استخدموها مع الأخريات... كنت أتألم حين يرجعن من التحقيق وأيديهن متورمة وتنزف بسبب الآلة التي يضغطون بها على الأصابع، كنت أتوجع في كل مرة أرى علامات التعذيب بالكبل واضحة على أفخاذهن.. أنا لم يعذبوني.. قالوا لي: أنت منا ومعنا».

وعلى الرغم من أن معظم الشهادات ذكرت أن المنبت الأقلوي غالباً ما يؤخذ بعين الاعتبار لدى الأجهزة الأمنية في التعامل مع المعتقلات من النساء، إلا أنه بالنسبة لبعضهن لم يكن ميزة إيجابية، بل كان وبالاً عليهن وخضعن لعقوبة مضاعفة بسببه.

> تقول هالة: «التقيت بصبية من المنبت العلوي خلال فترة اعتقالي... كانت هذه الصبية أكثر من تم تعذيبهن بيننا». وتضيف: «.. حين التقيت بها كانت قد أمضت أكثر من خمسة أشهر في الفرع .... كان هناك سجان يأتي بين الحين والأخر ويشتمها بأقذع الشتائم لأنها «انفصلت عنهم» وفق تعبيره.

> لم يكن التمييز بين المعتقلات على أساس طائفي ومناطقي فقط، فقد أشارت الشهادات إلى بعض الحالات الفردية التي جرى فيها تمييز اجتماعي وطبقي؛ تتحدث ماري عن سيدة قابلتها في المعتقل وتقول إنهم أخذوا بعين الاعتبار ثراءها وأطلقوا سراحها بعد أن حصلوا على الكثير من الأموال.
> «وصلت إلى الفرع سيدة غنية مع أولادها، كانت على وشك الهرب وكان زوجها في الجيش الحر وكان معها الكثير من المال ولديها جوازات سفر مزورة... ساوموها على كل ما لديها وأطلقوا سراحها وأولادها.».

ويمكن القول إن هذا الأمر حدث كثيراً في المراكز الأمنية بعد الثورة، فيمكن مقابل مبالغ مالية كبيرة إطلاق سراح المعتقلة أو المعتقل، بالمقابل يبقى الفقراء وغير القادرين على دفع المال لسنوات طويلة في المعتقل، حتى وإن لم توجه لهم تهم بالإرهاب وغير ذلك من التهم التي وجهت لمعتقلي ومعتقلات الثورة.
يبدو من خلال تحليل الشهادات أن هناك اعتبارات خاصة تأخذها الأجهزة الأمنية بعين الاعتبار، لكنها تخضع غالباً لأمزجة الضباط والمحققين وقد جاء في بعض الشهادات أن رجال الأمن يميزون المعتقلات اللواتي يمكن أن يخرجن بعد الاعتقال ويفضحوهم في وسائل الإعلام، كذلك هم يميزون النساء اللواتي لديهن خبرة وعلاقات ومعارف في الخارج.

> تروي عبير أن أصدقاءها قاموا بإطلاق حملة للمطالبة بها بعد اعتقالها وهو ما تعتبره ربما سبباً في عدم تعرضها للتعذيب، تقول في شهادتها حول ذلك:
> «كان من حسن حظي أني كنت أرتدي ملابس أنيقة عند وصولي للفرع... قام بضرب زميلتي التي تقف إلى جواري واستدار نحوي وطلب رقم هاتفي، وقال لي بأنه سيساعدني ...» وأضافت أنه خلال فترة التحقيق فيما بعد، تم مراعاة مستواها الثقافي ومعرفتها باللغة الانكليزية: «مرة جلس أحد المحققين معي ثلاث ساعات ليقنعني بالمؤامرة الكونية، وأبدى إعجابه بي وبنشاطي وبتجوالي في أمريكا وأوروبا... كان يحاول جاهداً أن يظهر نفسه على أنه رجل مثقف، وبين الحين والآخر يتحدث معي بالإنكليزية ليقنعني بأنه يجيد التحدث بها مثلي.».

79- الأخضر الابراهيمي: إنبوب بلاستيكي أخضر قاسي، يستخدم عادة للصرف الصحي، يستعمل كوسيلة للتعذيب من قبل الأجهزة الأمنية، حيث أنه يسبب ألماً شديداً، وقد أطلق عليه هذا الاسم من قبل السجانين في الأفرع الأمنية استهزاءً بالمبعوث الدولي الخاص بسوريا / الاخضر الابراهيمي ومهمته بين عامي 2012 و2014

80- نبال: تولد السويداء، اعتقلت عام 2013 من قبل الأمن السياسي في دمشق وأطلق سراحها في 2014 في صفقة مبادلة الراهبات.

روت بعض الشهادات أن التعامل مع المعتقلات والمعتقلين في سنوات الثورة يختلف من فرع إلى آخر وهو يختلف من سنة إلى أخرى؛ اللواتي اعتقلن عام ٢٠١١ ثم اعتقلن في سنوات لاحقة أدركن أن الأمور كانت تمضي للأسوأ.

تقول ندى[81] التي اعتقلت أكثر من مرة ولدى أكثر من فرع بين عامي ٢٠١١ و٢٠١٥ أنهم في اعتقالها الأول، في فرع أمن الدولة في دمشق، أخذوا بعين الاعتبار أنها من أسرة دمشقية عريقة، لكن هذا الاعتبار، وفي الفرع ذاته، لم يراعى عند اعتقال صديقتها التي كانت أيضاً تنتمي لعائلة دمشقية عريقة بعد مرور سنة على الثورة.

«...في اعتقالي الأول أخذوا بعين الاعتبار أني من أسرة دمشقية عريقة ولم يعذبوني ... لكن صديقتي، الدمشقية أيضاً، والتي اعتقلت بعدي، أخبرتني أنها تعرضت للتعذيب.».

وتضيف أنه في اعتقالها الأخير عام ٢٠١٥، وخلال فترة تواجدها في سجن عدرا، صدمت من الطريقة المذلّة التي كانوا يعاملون بها النساء المعتقلات:

« حتى في سجن عدرا الذي من المفترض أنه أفضل نسبياً مقارنة بالفروع الأمنية، حين كنا نخرج من المهجع كنّا نؤمر بأن نضع أيدينا خلف ظهورنا ونحني رؤوسنا... كان المطلوب إظهار احترامنا لمدير السجن».

وتعتقد ندى أن رجال الأمن يخشون المحاسبة، لكنهم يراهنون على ضعف المعتقلات والمعتقلين وخوفهم وقلة حيلتهم، فإن استطاعوا ابتزازهم/ن من أجل المال فسوف يفعلون ذلك، وإن كان بإمكانهم ابتزاز النساء جنسياً فهم لن يوفروا جهداً، شريطة ألا تكون هذه المرأة قادرة على إعلاء صوتها. تعتقد أيضاً أن رجال الأمن يبتعدون أحياناً عن إقحام أنفسهم في مشكلة حين يواجهون معتقلة قوية الشخصية، فلديهم أيضاً ظروفهم الداخلية الخاصة في الفرع، وهم يخشون بعضهم البعض ويتنافسون في إظهار ولائهم لأسيادهم، وتشرح ندى سبب اعتقادها هذا عبر تجربتها الشخصية، فقد كان المحقق يقلّب صفحات ملفها حين لمحت صورها الشخصية التي كانت تحتفظ بها في كمبيوترها الذي صادروه عند اعتقالها، كان بينها صور لها وهي عارية:

«قلت له: لماذا هذه الصور لديك؟ سألته دون أن أحسب أي حساب لردة فعله، أجابني بأن لا أقلق وأن الصور (بأمانتهم)... قلت له: ليس من حقك أن تفعل ذلك...! قلتها بعصبية ورفعت صوتي... حين رأى إصراري حاول تهدئتي وتغيير الموضوع».

وتضيف حول الموضوع ذاته والذي اعتبرته اهانة وانتهاك لخصوصيتها:

«عند اعتقالي الثالث لدى فرع آخر، لمحت الصور ذاتها في ملفي...عرفتهم من ألوانهم.. وكأنهم ينقلون هذه الصور من فرع إلى آخر، فكرت أنه في حال ابتزوني بهذه الصور فلن أسكت وسوف أقوم بفضحهم.».

ثم تضيف: «.. لم يحصل في كل تجارب اعتقالي أي انتهاك لجسدي، ولكن كان هذا انتهاكاً لخصوصيتي وهذا ما قهرني كثيراً.».

وتروي الدكتورة فداء حادثة مماثلة حصلت معها بعد أيام من وجودها في فرع أمن الدولة في كفرسوسة في الـ ٢٠٠٧:

«بعد أيام من نزولي للمهاجع تحت الأرض طلبوني للتحقيق، بدأ المحقق بشتمي بأقذع الألفاظ قبل أن يسألني أي سؤال. جلست حين أمرني أن أجلس وقلت له: أرجو أن تتحدث معي باحترام كما أتحدث معك... بعد سماع جملتي هذه تغيرت كل معاملته، ثم انقلبت كل لهجته، وبدأ يناقشني في موقفي السياسي وجرى حوار بيننا».

تتحدث فداء فيما بعد عن المشاعر المتناقضة التي عاشتها تجاه عناصر الأمن في الفرع:

«في بعض الأحيان كنت أشفق عليهم، فهم في النهاية أبناؤنا، ربما لو كان الوضع في بلادنا مختلفاً لكانوا في جامعاتهم أو في أعمالهم الأخرى، لكن في بعض الأحيان، خاصة حين كانوا يقومون بتعذيب الآخرين، كانت تجتاحني مشاعر كراهية لهم... فعلاً في الفرع ترتبك مشاعر المرء وتختلط وتتناقض كل حين... هذا ما يفعله الظلم والاستبداد».

بالإضافة لكل الانتهاكات التي تقوم بها، تمارس الأجهزة الأمنية تمييز ضد النساء بشكل ملحوظ ومثير للسخرية غالباً.
فقد روت لونا[82] أنهم حين اعتقلوها عام ١٩٨٧ قاموا باختطافها من بيتها ولم ينتظروا عودة والدتها، أو تبليغها عن الجهة التي اعتقلتها، بالمقابل حين أطلقوا سراحها بعد عام، نقلوها من فرع فلسطين إلى فرع الأمن العسكري في حلب، ثم أبقوها في السجن لأيام حتى جاءت والدتها لاستلامها:
«بقيت أسبوعاً في فرع حلب، لأنهم لم يقبلوا بإطلاق سراحي حتى يحضر أحد أفراد عائلتي والذين، بالصدفة، لم يكونوا متواجدين في حلب حينها، يعني هم أنفسهم الذين أخذوني قبل سنة من بيتي، دون أن ينتظروا قدوم أمي وأبقوني عاماً لديهم، دون أن تعرف عني خبراً، أرادوا أن يثبتوا لها وللمجتمع حرصهم الشديد عليّ، لذلك أبقوني لديهم حتى جاءت لاستلامي».

وحول العقلية الذكورية الفصامية التي يتعامل بها جهاز الأمن مع المعتقلات تروي ندى أنهم في سجن عدرا لم يكونوا يسمحون للنساء باستخدام المكتبة بينما كانوا يسمحون بذلك للرجال.
«حتى في السجن هناك تمييز بين النساء والرجال، على سبيل المثال، حين كنت في سجن عدرا، حاولت استعارة كتاب من مكتبة السجن، أجابوني: «ممنوع على النساء استعارة الكتبّ» حين سألت عن السبب، قالوا: «.. ربما يكون في الكتب ما هو غير أخلاقي ومعيب ويمكن أن يفسد أخلاقنا كنساء».

81- ندى: تولد دمشق 1986، اعتقلت أربع مرات بين عامي 2011 و2015، على خلفية مشاركتها بالعديد من النشاطات والاعتصامات وقد أمضت فترات اعتقالها في فرع الخطيب، أمن الدولة، الأمن السياسي وسجن عدرا على التوالي.، وهي لا تزال مقيمة في دمشق.
82-"لونا: مواليد حلب عام 1966، اعتقلت من قبل فرع الأمن العسكري في حلب ثم نقلت إلى فرع فلسطين حيث أمضت عاماً كاملاً كرهينة عن أختها المطلوبة من قبلهم.

الجزء الثاني:

التعذيب

يعرف التعذيب بأنه سلوك عنفي يقوم به شخص من موقع السلطة عمداً، لكي يتسبب بالألم والمعاناة لشخص آخر في موقع أدنى بغية هدف معين كانتزاع المعلومات أو الاعترافات أو من أجل المعاقبة والترهيب والتهديد[83]. ويعد التعذيب محرماً دولياً بموجب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ [84] وبموجب العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية[85] والذي صادقت عليه سوريا في ٢١ نيسان عام ١٩٦٩ وكذلك اتفاقية مناهضة التعذيب[86] والتي تلزم الدول الأعضاء باتخاذ التدابير اللازمة لمنع التعذيب داخل حدودها، والجدير بالذكر أن سوريا صادقت على هذه الاتفاقية في آب عام ٢٠٠٤ [87] أي في عهد بشار الأسد وقدمت تقاريرها إلى لجنة مناهضة التعذيب المعنية بمراقبة الدول الموقعة على الاتفاقية[88]، لكن على الرغم من ذلك لا يزال التعذيب هو الأسلوب الأبرز لانتزاع المعلومات من المعتقلات والمعتقلين وإذلالهم وإذلال مجتمعاتهم، حتى لو أفضى ذلك إلى تشويههم أو قتلهم، وقد ظهرت الكثير من الأدلة التي وثقت صور وأسماء آلاف المعتقلين الذين قضوا تحت التعذيب منذ انطلاقة الثورة[89] وهو ليس بالجديد في تاريخ العائلة الحاكمة، فقد قضى المئات موتاً تحت التعذيب في عهد الأسد الأب من الإسلاميين ومن اليساريين[90]، ويجدر القول إنه وحتى تاريخ كتابة هذا التقرير لا تزال حملات الاعتقال مستمرة في سوريا ولا تزال أقبية الأفرع الأمنية تغص بالمعتقلات والمعتقلين المحرومين من أدنى شروط الحياة الإنسانية ومن الرعاية الصحية والمهددين بالموت كل لحظة[91].

نحاول في هذا الجزء من التقرير البحث عن تجليات هذا العنف وكيفية ممارسته على المعتقلات والمعتقلين السياسيين وآثاره الجسدية والنفسية عليهن/م من خلال شهادات شهودنا وشاهداتنا الذين اعتقلوا في فترات زمنية مختلفة من ع الأب والابن ولدى العديد من الأفرع أمنية.

١- التعذيب في الفروع الأمنية السورية

تنوعت وتعددت وسائل التعذيب التي تستخدم ضد المعتقلات والمعتقلين السياسيين على مدى سنوات حكم الأسد الأب والتي ورثها ابنه فيما بعد[92]، وتعتبر هذه الأساليب عالمية ويعود بعضها إلى العصور الوسطى وبعضها الآخر يعود لسجون النازية «كالكرسي الألماني» وعلى الرغم من أن العديد من الأنظمة القمعية لا تزال تتشارك أنواع التعذيب وأدواته، إلا أن التفنن في استخدامها هو ما يميز العقلية الاستثنائية المتوحشة للنظام السوري[93] والتي بدأت تظهر جليّة خلال السنوات الأخيرة، حيث يستمر التعذيب طوال فترة الاعتقال[94]، فمع تزايد أعداد المعتقلات والمعتقلين أصبح الاكتظاظ وسيلة تعذيب جديدة[95]، حيث لا مساحة للنوم أو الجلوس على نحو مريح، وهي طريقة تعذيب جماعي يقصد منها، بالإضافة للإذلال، حرمان المعتقلات/ين من التعاطف فيما بينهن/م، فقد يستمر الوضع كذلك لسنوات، يبقون خلالها محرومات/ون من الضوء والطعام الجيد وأي نوع من أنواع النظافة الشخصية.

خضعت معظم شاهداتنا من النساء للتعذيب الشديد ؛ حتى أنهن وصلن في لحظة ما لتمني الموت، كي يتوقف الألم، لكن أجسادهن صمدت ضد هذه الإبادة والاستباحة والتي لا تزال آثارها ظاهرة عند بعضهن، أما آثارها النفسية، فظلت ندباً عميقة في أرواحهن جميعاً، حتى عند أولئك اللواتي مضى عشرات السنوات على خوضهن هذه المحنة.

عند الحديث عن التعذيب وتذكر آلاف المعتقلات والمعتقلين الذين قضوا بسببه طوال ما يقارب خمسين عاماً من تاريخ حكم العائلة الأسدية في سوريا، يبرز سؤال في منتهى القسوة: يا ترى كم هو مقدار التعذيب الذي تعرض له النساء والرجال الذين قضوا بسببه؟

«لم أحكِ لأحد عن ذلك... أو على الأصح، لم يسألني أحد..!» (سارة)

> «في اعتقالي الأول عذبوني بالكبل الرباعي وبالكهرباء وبالدولاب، لكن في اعتقالي الثاني كان التعذيب أشد.. ربما لأني لم أتعلم الدرس وتابعت نشاطي السياسي في اليوم التالي بعد خروجي من المعتقل... عذبوني لمدة أسبوع كامل هذه المرة... كان تعذيبهم متواصلاً.. لم يسمحوا لي بالنوم... كانت حفلات التعذيب الأكثر عنفاً تحدث في الليل».(سارة)
>
> تذكر سارة أن لحظة الاستقبال في الفرع عند اعتقالها الأول عام ١٩٨٣ كانت هي الأصعب، فقد تم تعذيبها بالكبل الرباعي وبالكهرباء لانتزاع المعلومات، لكن في اعتقالها الثاني عام ١٩٨٤ كان التعذيب أشد بكثير حيث أنهم كانوا يدخلونها الحمام، ثم يفتحون صنبور المياه الباردة، فتلتصق

ثيابها بجلدها ويبدؤون بضربها بالكبل ثم يصعقونها بالكهرباء في أصابعها، لكن الحرمان من النوم بعد جولات التعذيب كان الأشد قسوة وألماً:

«.. بعد أن انتهت جولة التحقيق أمرهم الضابط بإخراج البطانيات من زنزانتي وإغراقها بالمياه... لحسن حظي أن أرضية الزنزانة كانت مائلة قليلاً وبالتالي كانت هناك زاوية جافة أجلس فيها طوال الليل ولم أستطع النوم لمدة أسبوع كامل... لازلت بعد كل هذه السنوات أشعر بالبرد ينخر عظامي كلما تذكرت».

وتضيف: «لم أحكِ لأحد عن هذا... على الأصح، لم يسألني أحد... لكن ما أن وصلت إلى بلد اللجوء بعد عشرات السنوات حتى انفتح صوتي للكلام».

يقول محمد الذي شهد على جرائم تعذيب فظيعة في سجن تدمر وفي فرع أمن الدولة في حلب عام ١٩٨٠:

«التعذيب يبدأ من اللحظة الأولى، من باب البناء الذي تسكن فيه... في فرع أمن الدولة في حلب كانت تكوى صدور المعتقلين وتسلط على صدورهم وظهورهم وشيعه كهربائية عالية الفولت... النساء أيضاً خضعن لتعذيب شديد.. كنا نسمع أصواتهن وصراخهن ليلاً... لم نرهن، سمعنا فقط... كانوا حين يريدون تعذيب امرأة يقرعون باب مهجعنا ويطلبون سروالاً لها... فيما بعد لم يعودوا يهتمون لذلك».

ذكرت شاهداتنا المعتقلات بسبب انتمائهن لحزب العمل الشيوعي أنهن في فترة التحقيق تعرضن لتعذيب مشابه لما تعرض له الرجال، من أجل انتزاع معلومات توصلهم إلى أعضاء في الحزب وقد أجمعن في شهاداتهن أنهن كنّ مهيآت نفسياً للاعتقال، فمن يعمل بالشأن السياسي في سوريا كمعارض للنظام يدرك مسبقاً أنه سيتعرض للاعتقال وللتعذيب في نهاية المطاف.

«كنا مهيآت نفسياً لإمكانية أن نعتقل، لكن ليس لفترة طويلة... كنت قد قرأت عن التعذيب الذي يتعرض له المعتقلون، لكن مهما قرأتِ يبقى الواقع أمراً مختلفاً... بعد يومين من التعذيب المتواصل الذي تعرضت له لم يعد بإمكاني تحمل المزيد من الألم... لم يعد بإمكاني تحمل أصوات التعذيب... كان هناك مجزرة حقيقية في فرع فلسطين عام ١٩٨٧.. كان الفرع مثل طاحونة مستمرة بالضجيج تطحن المعتقلين كل الوقت...تناولت كل ما لدي من دواء.. كنت أريد أن ينتهي كل شيء.. أسعفوني إلى المشفى، قالوا لي: «وليه كلبة لن نسمح لك بأن تموتي» (ليلى)

وحول نفس الفكرة تحدثت سلام[96]: «عند اعتقالي من البيت لم يضربوني، لكن منذ اللحظة التي دخلت فيها باب الفرع بدؤوا بضربي... لكمات وصفعات... قبل أي سؤال... يعني من يدخل إلى الفرع يجب أن يعرف أنه سيأكل نصيبه من التعذيب والإهانة.. كنت مهيأة نفسياً، وكان لدي

83- منظمة العفو الدوليةhttps://www.amnesty.org/ar/what-we-do/torture/

84- المادة الخامسة من الاعلان https://www.un.org/ar/udhrbook/pdf/UNH_AR_TXT.pdf

85- المادة السابعة من العهد الدولي http://hrlibrary.umn.edu/arab/b003.html

86- اتفاقية مناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية- اعتمدتها الجمعية العامة وفتحت باب التوقيع والتصديق عليها والانضمام إليها في القرار 39/46 المؤرخ في 10 كانون الأول / ديسمبر 1984 - تاريخ بدء النفاذ: 26 حزيران/ يونيه1987 https://www.ohchr.org/AR/ProfessionalInterest/Pages/CAT.aspx

87- قاعدة بيانات الامم المتحدة الخاصة بالهيئات المنشأة بموجب معاهدات حقوق الإنسان https://tbinternet.ohchr.org/_layouts/15/treatybodyexternal/Download.aspx?symbolno=CAT%2fC%2fSYR%2fCO%2f1&Lang=ar

88- لجنة مناهضة التعذيب - الدورة الرابعة والأربعون - 26 نيسان/أبريل - 14 أيار/مايو 2010 النظر في التقارير المقدمة من الدول الأطراف بموجب المادة 19 من الاتفاقية./https://tbinternet.ohchr.org/_layouts/15 treatybodyexternal/Download.aspx?symbolno=CAT%2fC%2fSYR%2fCO%2f1&Lang=ar

89- موقع زمان الوصل – القصة الكاملة لقتل 11 ألف سوري تحت التعذيب في سجون الأسد. https://www.zamanalwsl.net/news/article/48706 https://bit.ly/2RKgA9H

90- اللجنة السورية لحقوق الإنسان عن تقرير منظمة العفو الدولية- تعذيب ويأس وتجريد من الإنسانية – تاريخ 13/9/2001 https://www.shrc.org/?p=21358

91- تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان- ما لا يقل عن 98000 مختف قسرياً في سوريا منذ آذار 2011 – الاخفاء القسري سلاح النظام السوري الأكثر ألماً ووحشية- تاريخ 30/8/2019 -http://sn4hr.org/public_html/wp content/pdf/arabic/At_least_98000_have_been_forcibly_disappeared_in_Syria_since_March_2011.pdf

92- تقرير العفو الدولية- ضعوا حداً للرعب والتعذيب في سجون سوريا https://www.amnesty.org/ar/latest/campaigns/2016/08/syria-torture-prisons/

93- النيويورك تايمز- داخل سجون التعذيب السرية السورية- كيف سحق بشار الأسد معارضيه- 22/7/2019 https://www.nytimes.com/ar/2019/07/22/world/middleeast/syria-torture-prisons.html

94- هيومن رايتس وتش – لو تكلم الموتى – الوفيات الجماعية والتعذيب في المعتقلات السورية- تاريخ 16/12/2015 https://www.hrw.org/ar/report/2015/12/16/284536

95- تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان- توثيق 72 أسلوب تعذيب لايزال النظام السوري مستمراً في ممارستها في مراكز الاحتجاز والمشافي العسكرية التابعة لها- تاريخ 21/10/2019 http://sn4hr.org/public_html/wp-content/pdf/arabic/Documentation_of_72_Torture_Methods_the_Syrian_Regime_Continues_to_Practice_in_Its_Detention_Centers_and_Military_Hospitals.pdf

96- سلام: تولد حمص عام 1965 اعتقلت عام 1987 من قبل فرع الأمن العسكري في حلب على خلفية انتمائها لحزب العمل الشيوع وجرى نقلها إلى فرع فلسطين في دمشق ثم نقلت على سجن دوما للنساء حتى إطلاق سراحها عام 1991.

تصور عما يمكن أن يحدث... لم أخف.. كنّا حينها شابات وشبان مفعمين بالعنفوان، كنا نفكر بأننا نعمل من أجل تغيير العالم وهذا يحتاج إلى تضحيات وكنا جاهزات وجاهزين لدفع الثمن».

ربما كانت بعض المعتقلات وفق الشهادات التي سمعناها مهيآت نفسياً لخوض التجربة ويتوقعن ما الذي يمكن أن يحدث لهن، لكن لمى التي اعتقلت وهي لا تزال في الخامسة عشرة من عمرها لم تفهم عند اعتقالها ما الذي فعلته لتستحق ذلك:

تقول لمى: «.... أكثر ما كان يشعرني بالإهانة والذل هو أني كنت أتعذب دون أن أعرف ما الذي فعلته، لم يواجهوني بأي شيء.. تعذبت كثيراً بالكهرباء.. علقوا أسلاك الكهرباء في أصابعي وفي أذنيّ.. بقيت تسع سنوات في السجن وخرجت ولم أعرف حتى الآن ما الذي فعلته لأستحق كل هذا... حتى الآن وبعد مضي عشرات السنوات أتجنب الاقتراب من الكهرباء أو وضع أي جهاز في قابس الكهرباء».

«من أين له الحق بتعذيبي؟»

لم تختلف الصورة عن مراكز الاعتقال وعن التعذيب الوحشي الذي يتعرض له المعتقلين/ات في أذهان السوريين في عهد الأسد الابن حيث كرست ممارساته القمعية التي ورثها عن أبيه، الصورة ذاتها وبقي لدى معظم السوريين التصور الثابت بأن الاقتراب من السياسة هو مخاطرة كبيرة تتطلب شجاعة فائقة.

تقول عبير التي اعتقلت عام ٢٠١٢ وكانت ناشطة سلمية في الثورة:

«كان لدي فكرة عما يمكن أن يحدث في الاعتقال... لم أكن أخاف.. كنت أتوقع النتائج... وهي يمكن أن تكون التعذيب والإهانة وصولاً إلى الاغتصاب، لذلك حضرت نفسي؛ حلقت شعري وصبغته بالأبيض وتركت الشعر على جسدي... أردت.. إن حدث واغتصبوني ألا يكون الأمر ممتعاً لهم... يعني أن يبقى جزء من عملية التعذيب... قد تكون الفكرة سخيفة لكن فعلياً هذا ما فعلته.».

شهدت سنوات الثورة الكثير من الجرائم بحق المعتقلات والمعتقلين واستخدام أساليب جديدة في التعذيب، وعلى الرغم من أن معظم شاهداتنا تعرضن أو شهدن أنواعاً مختلفة من التعذيب إلا أن معظمهن ردّدن عبارة شبيه بعبارة جنى[97]: «لم يؤذوني كثيراً مقارنة بغيري»!، تبدو هذه العبارة نوعاً من التحايل على قساوة الظروف النفسية التي تسبق عملية التعذيب، والتي تصبح واقعاً عند خوضها، ليغدو الحكم على قساوة التعذيب أو عدمه هو النجاة من الأشد والأسوأ، كالاغتصاب أو الموت.

تقول جنى: «حرقوا ساقيّ كي لا أعود 'للخروج في المظاهرات' كما قالوا.. حرقوهما بأسياخ حديدية حامية وبالكهرباء... لا تزال الندوب موجودة ومن الصعب إزالة آثارها... خرجت من المعتقل مشوهة جسدياً ونفسياً... على الرغم من أنهم لم يؤذوني كثيراً مقارنة بغيري».

حين كانت بعض شاهداتنا يروين لنا ذكرياتهن عن التعذيب الذي تعرضن له كان يدور على ألسنتهن السؤال: «من أين له الحق بتعذيبي؟» وعند طرح بعضهن هذا السؤال على الجلادين كانوا يجيبون بسخرية: بأنهم لا يعتبرون من يعارض نظامهم إنساناً يستحق الحياة، بينما هرب قلة منهم نحو القول بأنهم عبيد مأمورون، وقد أظهرت بعض الشهادات أن هناك في الفروع الأمنية من العناصر، وخاصة من المجندين إجبارياً، من قد لا يحتمل رؤية حفلات التعذيب، لكن مع الوقت يبدو أن الغالبية تعتاد على مشاهدة جولات التعذيب والمشاركة بها، وتصبح أوجاع المعذبات/ين وآلامهن/م موضوعاً للسخرية.

تتحدث سحر[98] طويلاً عن إحساسها بالمرارة من سخرية عناصر الفرع الذين حضروا تعذيبها:

«فور إدخالي لمكتب الضابط رئيس الفرع قاموا بنزع حذائي وجواربي ووضعوني في الدولاب ودفعوه بقوة فاصطدم وجهي بالأرض، ثم انهالوا عليّ بالضرب. كانت الأرض مبللة... ومع كل سؤال كانت وتيرة الضرب تشتد... حين انتهى التعذيب لم أستطع الوقوف على قدمي... بدأت أقفز من الألم... كانوا يضحكون ويهزؤون بي: «يلله عالدبكة.. يلله عالدبكة». أكثر ما آلمني أنهم كانوا بأعمار أولادي...»

اعتقلت آيات في المرحلة الانتقالية بين نهاية عهد الأسد الأب وقيام الثورة، بسبب توزيع مناشير في الجامعة. تذكر آيات في شهادتها أن أكثر ما آلمها في التعذيب هو أنهم أحضروا والدتها لتشاهد تعذيبها، وتعتقد بأنه سلوك يرمي إلى مضاعفة تعذيبها وإلى تعذيب والدتها التي ستشعر دائماً بالعجز عن حمايتها أمام بطشهم:

«... أكثر مشهد عالق في ذاكرتي عن التعذيب هو حين كنت مقيدة اليدين إلى الخلف ومعصوبة

العينين وقد أجلسوني على ركبتيّ على الأرض، ثم أمسكني الجلاد من غطاء رأسي ودفعه بكل قوته ليخبط بالأرض، ثم وضع حذاءه على رأسي وعاد ليخبطني بالأرض مجدداً... حينها سمعت صراخ أمي.. كانوا قد أحضروها لتشاهد...!»

حين اعتقلت الدكتورة فداء عام ٢٠٠٧ كانت المراكز الأمنية شبه خالية من المعتقلات السياسيات، لكنها تذكر في شهادتها أن الأفرع الأمنية كانت تغص بالسجينات القضائيات وأنها صدمت من حجم التعذيب الذي يتعرضن له:

تقول فداء: «كنت أفترض أنه في الدولة الأمنية، المعتقلات السياسيات فقط هن من يتعرض للتعذيب من أجل انتزاع المعلومات أما الموقوفات لأسباب جنائية فيتم التحقيق معهن بالطرق والأساليب القانونية المعروفة، هذا كان تصوري.. لكني اكتشفت في فرع أمن الدولة وفي سجن دوما أن الأمر ليس كذلك، خاصة بالنسبة للطبقات الفقيرة والمسحوقة».

تضيف فداء أن السجينات القضائيات اللواتي كن يصلن إلى سجن دوما قادمات من الفروع الأمنية والجنائية كن يتعرضن للتعذيب والإذلال وحتى للتعرية والاغتصاب في بعض الحالات:

«وصلَت إلى السجن أثناء فترة تواجدي الكثير من السجينات القادمات من الأمن الجنائي، كن مضروبات وغير قادرات على المشي، ذكرن لي أنهن تعرضن للتحرش والتعرية وللكثير من الإذلال...».

٢- العنف الجنسي

يعتبر العنف الجنسي من أخطر الجرائم نظراً لتبعاته المدمرة على الضحايا أنفسهن/م، ولما يخلفه من آثار سلبية بدنية ونفسية واجتماعية واقتصادية عليهن/م، وكذلك على عائلاتهم وأقاربهم، وغالباً ما تمتد آثاره المدمرة على النسيج الاجتماعي كاملاً[99].

ويعتبر العنف الجنسي محظوراً بموجب قانون حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني[100]، وقد شهدت السنوات العشرون الماضية تطوراً كبيراً على مستوى القانون الدولي الجنائي[101] الذي بات يجرّم أشكال العنف الجنسي على المستوى العالمي.

ولا يقتصر العنف الجنسي على الاختراق الفعلي لجسم الإنسان[102] وإنما يشمل أفعالاً لا تضمن الإيلاج أو حتى التلامس البدني، وقد قدمت السوابق القضائية والكتابات القانونية عدداً من الأمثلة عن العنف الجنسي مثل: تشويه الأعضاء الجنسية، الاستغلال الجنسي والتجريد القسري من الثياب وكشوف العذرية. وبالتالي فإن مفهوم العنف الجنسي أوسع بكثير من جريمة الاغتصاب، أي أنّه يتضمن الاغتصاب ولكنه أوسع دلالة منه، وقد اتجهت أحكام المحاكم الدولية لتعريفه بأنه:

«كل فعل ذي طبيعة جنسية يرتكب ضد شخص في ظروف إكراه»[103]

و«فعل ذو طبيعة جنسية» له دلالة واسعة جداً، فقد تتراوح من الإيلاج إلى التلفظ بألفاظ ذات إيحاءات جنسية. وأشارت أحكام المحاكم الدولية بأن «الإكراه» يجب أن يفهم فهماً واسعاً على أنه لا يقتصر على استخدام القوة البدنية، وإنما يشمل كذلك التهديد والتخويف والابتزاز وكل أشكال الإكراه الأخرى التي تستغل مشاعر الخوف واليأس.

97- جنى: مواليد دمشق 1997 اعتقلت في حزيران 2014 من قبل فرع الأربعين وكان عمرها لم يتجاوز 17 عاماً وقد تعرضت لتعذيب شديد.

98- سحر: اعتقلت في آذار 2012 على أحد الحواجز ونقلت إلى فرع الأمن الجوي في حرستا حيث ذكرت أنها كانت أول امرأة معتقلة في هذا الفرع، ولاحقاً تعاقب على الزنزانة، التي بقيت فيها سبعة أشهر حوالي 65 معتقلة، إلى أن أطلق سراحها في تشرين الأول 2012

99- موقع نظرة للدراسات النسوية- الآثار النفسية والاجتماعية على الناجيات من الاعتداء الجنسي والاغتصاب – ورقة بحثية للدكتورة الفت علام – تاريخ 27/11/2016 https://bit.ly/2PFRdDh

100- المادة 27 من اتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية المدنين– حيث حظرت صراحة الاغتصاب والاكراه على الدعارة واي انتهاك لحرية المرأة
https://www.icrc.org/ar/doc/resources/documents/misc/5nsla8.htm

101- مقال غلوريا غاجيولي: العنف الجنسي في النزاعات المسلحة/ انتهاك للقانون الدولي الإنساني وقانون حقوق الإنسان.
https://www.icrc.org/ar/international-review/article/sexual-violence-armed-conflicts-violation-international-humanitarian

102- النظام الاساسي للمحكمة الجنائية الدولية للراوندا، المادة 3(ز)http://www.un.org/arabic/documents/basic/rwanda.pdf

103- مقال غلوريا غاجيولي: https://www.icrc.org/ar/international-review/article/sexual-violence-armed-conflicts-violation-international-humanitarian

- المحكمة الجنائية الدوليةلراوندا، المدعي العام ضد(جان بول أكايسو)، القضية رقم ICTR-96-4 (الدائرة الابتدائية 2 ايلول سبتمبر 1998، الفقرة 688
http://unictr.irmct.org/sites/unictr.org/files/case-documents/ictr-96-4/trial-judgements/en/980902.pdf

- المحكمة الجنائية الدولية لراوندا المدعي العام ضد (ألفريد موسيما) القضية رقم- ICTR 13-96- (الدائرة الابتدائية)27 كانون الثاني2000 الفقرة 965
http://unictr.irmct.org/en/cases

«.. ثلاثين عاماً وأنا أدرّب نفسي على نسيان ذلك». (سلام)

معظم شاهداتنا المعتقلات في مرحلة حكمي الأب والابن ذكرن في شهاداتهن أنه تم تهديدهن بالاغتصاب واستخدمت الشتائم والألفاظ الجنسية في تعنيفهن وتم تخويفهن وابتزازهن من أجل انتزاع المعلومات:

تقول رحاب التي قضت سنتين في السجن وحكم عليها في نهايتها بالبراءة:
«أثناء التحقيق يستخدمون الشتائم والكلام البذيء كالوصف بالعاهرة... هددوني أثناء التحقيق بأنهم سوف يقومون بتعريتي واغتصابي واستخدموا كلاماً بذيئاً لا أستطيع ذكره... كلام مقرف».

تشكك لمى بأن التي تتعرض للاغتصاب يمكن أن تروي حادثة الاغتصاب بسهولة، وتقول إنها بالكاد يمكن أن تهمسه لأشخاص موثوقين، وتحت شروط زمانية ومكانية محددة، وأنها خلال فترة سجنها الطويلة لم تصادف سوى سيدة واحدة كانت جريئة ولم تتردد بتكرار ما حصل معها على مسامع زميلاتها المعتقلات وعلى مسامع السجانين أيضاً.
تقول لمى: «هناك سيدة من الإخوان كانت تحكي... كانت سيدة في الأربعينيات من عمرها وغير متزوجة... كانت تكرر الحكاية أمامنا وأمام العناصر والسجانة حول كيف أنهم قاموا بتعريتها أمام أخيها وكيف عذبوها وكيف وضعوا الكهرباء في مناطق متفرقة من جسدها وكيف قرطوا لسانها بقراطة الأظافر... هي كانت تحكي... حدث ذلك في فرع أمن الدولة في حلب».
وتضيف: «الاغتصاب له أثر نفسي عميق وله أيضاً أثر اجتماعي لا يمكن تجاهله.. التي تتعرض للاغتصاب لا تقول أنا اغتصبت إلا في حالات خاصة أو لأشخاص خاصين مثل الطبيب النفسي أو لشخص قريب جداً وموثوق».

يقول محمد في شهادته عن أحد المعتقلين الذين قضوا تحت التعذيب:
«... لم يترددوا بإحضار زوجته وبناته الثلاث أمامه ليعترف، اغتصبوا زوجته وابنته أمامه، هددوه ونفذوا تهديدهم.. قال لهم بعد ذلك أنه سوف يتكلم، طلب منهم أن يفكوا قيده، ثم قام بضربهم فضربوه حتى مات... زوجته قاومتهم، فاغتصبوها بعنف، ثم نزفت حتى الموت... لم أعرف شيئاً فيما بعد عن مصير بناته».

اعتقل أسامة[104] لمدة ستة عشر عاماً أمضى منها عشر سنوات في السجن المركزي بحلب، التقى خلالها بنساء ورجال معتقلين على خلفية انتمائهم/ن أو علاقات ذويهم/ن بتنظيم الإخوان المسلمين:
«في مهجع النساء كانت هناك سيدة في الأربعينيات من عمرها مع ابنتيها القاصرتين.. كانوا قد اعتدوا على ابنتها في فرع الأمن العسكري في حلب وحملت، وكانت في السادسة عشرة حينها، أنجبت هذه طفلة حين كانت لا تزال في الفرع، بعدها نقلوهن إلى السجن الذي كنت فيه وبقيت المولودة مع أمها.. أصيبت الوليدة بالكساح نتيجة ظروف السجن الصعبة والقاسية.».

يقول أسامة إن الاغتصاب استخدم ضد نساء الإخوان بهدف الضغط على أزواجهن من أجل انتزاع المعلومات، وعلى الرغم من صعوبة التحدث عن تلك التجارب علناً، إلا أنه صادف في فترة اعتقاله أنه سمع امرأة تصرخ بصوت عال ليسمع كل من في المهاجع بأنهم اغتصبوها وأذلوها وفعلوا كل شيء وأبقوها لسنوات في السجن، على الرغم من أنها أنهت فترة حكمها.
«.... إحدى المعتقلات طلبت أن تتحدث مع مسؤول المفرزة في السجن، وحين سألها ماذا تريد؟ بدأت تصيح بصوت عالٍ: 'سنوات حكمي قد قضيتها، تعذيب وتعذبت، اضطهاد واضطهدت، اغتصاب واغتصبت، لماذا تحتفظون بي حتى الآن؟' كل من في مهاجع الرجال سمع ما قالته... أظنها تعمدت ذلك، حتى إن حدث وخرج أحد المعتقلين أن ينقل كلامها ويقوم بفضحهم». (أسامة)

ذاكرة الاغتصاب والعنف الجنسي بأنواعه، الذي تتعرض له المعتقلة، هي ذاكرة معقدة، خاصة حين يمضي وقت طويل على محاولة ردمها، فالكثيرات يعشن صراعاً طويلاً مع هذه الذكرى، ويزداد الأمر تعقيداً حين لا يوجد بيئة ملائمة للعلاج والاستشفاء كما ينبغي، وهو ما يجعل الناجية من الاغتصاب تحاول الاستشفاء بأدواتها الذاتية فقط، عبر نسيان التفاصيل وذلك بقصد الدفاع عن الذات في وجه التأثير النفسي العميق للتجربة، لكن يبدو أن هذه المحاولة لا ينتج عنها سوى المزيد من الألم الذي سيجتاحهن في أول مناسبة للحديث عنه، فيبدأن بسرد ذكرى مشوشة حاولن نسيان تفاصيلها، لكنهن احتفظن بالشعور بالألم والإهانة في العمق:

> «... أكثر ما يؤلمني ويشعرني بالإهانة هو محاولتهم تعريتي... منذ سنوات وأنا أقوم بتمرين نفسي على نسيان ذلك... لذلك كنت أتجنب هذا اللقاء (تقصد المقابلة) لأنه سيعيد لي تلك الذكرى القبيحة.. نعم... بعد ثلاثين سنة لازلت أحس بالإهانة وبالقهر عند تذكر ذلك».. (سلام)

تساهم بعض الظروف في تشويش ذاكرة المعتقلة التي تعرضت للاغتصاب أو التي تعرضت لعنف أو تحرش جنسي في المعتقل ويتم أحياناً تشويش متعمد على الحادثة من قبل الضباط المسؤولين عن الفرع، خاصة حين يواجهون الضحية أو يعرّضون للمساءلة، ربما ما حصل مع آيات نموذج لهذا الصراع من أجل نسيان تفصيل يخدش الذاكرة ويصمها بعد أن قيل لوالدها أنها اغتصبت بالخطأ، فهي تقول إنها لا تعرف كيف حدث ذلك ومتى:

> «خرجت من الزنزانة وفقدت الوعي فأخذوني إلى المستشفى، كما عرفت لاحقاً... حين أفقت أحسست أنه حدث شيء ما... كانت ثيابي ملوثة بالدماء.. لم أفهم! توقعت أنه نزيف نتج عن الضرب... كنت أتساءل بيني وبين نفسي عن السبب: هل هو بساط الريح[105]؟ أم ضغط نفسي..؟!.. حتى الآن لا أعرف.. ربما حدث ذلك في المستشفى.. حين تحدثوا عن الموضوع كان رئيس فرع فلسطين يخمن أين وقع الحادث ويردد كلمة 'ربما' لكنه كان متأكداً أن 'لا دخل للفرع بحادثة الاغتصاب'...!» (آيات)

تحاول الأجهزة الأمنية غالباً أن تبرئ نفسها من تهمة الاغتصاب، فإن حدث في الفرع وتم فضحه فيوصف بأنه تصرف فردي حدث بالخطأ، وفي مثال آيات ينقلب فجأة الضابط الذي يعتبر سيد المكان والعارف والمتحكم بكل شيء إلى شخص «لا علم له» ويستخدم كلمة «ربما» ويؤكد بأنه في حال حدثت الواقعة في المستشفى فإن الفرع بريء منها، متناسياً بأنها مسؤوليته كونه رئيس الفرع الذي اعتقلها، وأن وجودها في المستشفى كمعتقلة لا يختلف أبداً عن وجودها في الفرع.

> تقول ليال: «في فرع إل ٢١٥ في دمشق أدخلني الضابط إلى غرفته وبدأ يستجوبني، ربط يديَّ إلى الخلف، فتح الباب وبدأ يضربني، ثم أغلق الباب واقترب مني ليلتصق بي، ثم بعدها عاد ليفتح الباب ويضربني على قدمي بالكبل، ثم أغلق الباب وأدار وجهي إلى الحائط والتصق بي مجدداً، حتى وصل إلى المرحلة التي يريدها... ثم عاد وفتح الباب وجلس خلف مكتبه ونادى على السجان وقال له: 'خذها'!.. لم أفهم!.. طالما أراد ذلك لماذا يضربني؟... وطالما ضربني لماذا فعل ذلك...؟»
>
> ليست هذه المرة الوحيدة التي تعرضت بها ليال للتحرش والاغتصاب فقد ذكرت لنا أنه بعد نقلها إلى حمص وفي ليلة رأس السنة تم اغتصابها فموياً من قبل السجان
> « في فرع حمص وليلة رأس السنة طلبوني للتحقيق... أخذني اثنان من السجانين إلى غرفة خلف غرفة التعذيب، حين عرفا أنني في فترة الحيض أبديا قرفهما مني ... هناك كان يوجد سرير حديدي، قيدوني به واغتصبني أحدهما فموياً، بينما وقف رفيقه على الباب ...»

منذ عام ٢٠١١ ازداد توحش الأجهزة الأمنية وأعطي الضوء الأخضر لعناصر الأمن و «الشبيحة» والجنود لكي يفعلوا ما يشاؤون بمن تعتبرهم السلطة إرهابيين وأعداء للدولة، وقد ورد في العديد من التقارير الحقوقية جرائم عنف جنسي اقترفت ضد الرجال ومن شاهداتنا من كانت شاهدة على عنف جنسي باستخدام أداة حادة ضد صديقها..

> تقول يارا أنها على الرغم من معرفتها أنها ستعاقب إن نظرت أو أظهرت أي ردة فعل، إلا أنها لم تستطع منع نفسها من الصراخ إثر رؤيتها لمشهد اغتصاب صديقها من نافذة زنزانتها وتؤكد بأن صراخها كان سبباً في إنقاذ حياته، فقد توقف الجلاد عن تعذيبه وكان قد شارف على الموت.

104- أسامة: تولد حلب 1960 اعتقل حين كان طالباً في جامعة حلب عام 1982 على خلفية انتمائه لحزب العمل الشيوعي وأطلق سراحه عام،1998 ثم اعتقل عدة مرات فيما بعد كان آخرها عام 2013 على خلفية نشاطه في الثور

105- بساط الريح: إحدى وسائل التعذيب وهو عبارة عن قطعة خشبية لها شكل الجسم البشري، تربط فيها المعتقلة أو المعتقل وينهال عليهن/م بالضرب على كل أنحاء الجسم، ويمكن أن يطوى بحيث يلامس الرأس القدمين.

«صباح عيد الأضحى سمعت صراخاً لا يشبه صراخ الآدميين، بل يشبه صراخ وحش يموت... كان صديقي عارياً تماماً... كانوا يدخلون في مؤخرته سيخ حديد ثخين.. مشهد فظيع... كانت روحه تكاد تخرج من شدة الألم... إلى جانبه كان صديق له يقف منتظراً دوره وهو يرتعد خوفاً.. مشهد لن أنساه ما حييت».. (يارا)
وتضيف: «أن تكوني شاهدة على تعذيب أصدقائك أو أقربائك مشهد من الصعب نسيانه أو التعامل مع مشاعر الرعب عند استحضاره».

وعن التعرية والهدف منها يقول منير[106] أنها عمل ممنهج ومتعمد يقصد به الإهانة والإذلال وكسر المعتقل وإرادته: «الهدف من التعرية هو كسر المعتقل/ة وإرسال رسالة بمعنى أنك الآن موجود في مكان لا اعتبار فيه مطلقاً لإنسانيتك، التعرية هنا ليست تعرية من الثياب بل تعرية من إنسانيتك»
ويضيف في شهادته أنهم يستخدمون الإساءة الجنسية ضد الأم والأخت والزوجة بهدف أن يحقنوا المعتقل الرجل بكم كبير من الغضب الذي لا يستطيع إظهاره، فيختنق في جوفه ويحوله لوحش صامت وكسير أو إلى شخص ذليل فعلياً، عند تكرارها، حيث تصبح جزءاً من يومياته.

في العقلية الأمنية التي تعاملت مع معتقلات الثورة، ليس فقط أمهات المعتقلين «عاهرات» وفق شهادة منير، بل تعتبر كل المعتقلات المشاركات في الثورة «عرعورات» وعاهرات أو مارسن «جهاد النكاح» أو الدعارة مع الجيش الحر.

تقول عبير: «كانوا ينادونني بالـ'قحبة' هددوني بأنهم سيقومون بتعريتي في الممر، لكنهم قالوا بأنهم 'لن يغتصبوني'.. قالوا بأنني لست عذراء، وأنني كنت أمارس جهاد النكاح مع الجيش الحر ولإثبات ذلك سوف يقوم طبيب بالكشف عن عذريتي... ولكنهم كانوا مع كل تهديد يؤكدون أنهم لن يغتصبونني لأنهم 'مؤسسة حكومية' وفق قولهم».

يندر أن تنجو معتقلة من هذه الشتائم والألفاظ، وقد ورد في شهادات كل المعتقلات اللواتي اعتقلن في الفرع ٢١٥ ذكر اسم «شرشبيل» وهو على ما يبدو المسؤول عن تفتيش المعتقلات عند دخولهن إلى السجن، ويبدو أن «شرشبيل» هو الاسم الذي لقبته به المعتقلات دلالة على أنه مرعب ومتوحش.

تقول ليال: «جاء 'شرشبيل' وأخذني إلى غرفة الأمانات لتسليم أغراضي، كانت الغرفة مليئة بالمصاحف وأجهزة الكمبيوتر، طلب مني خلع ملابسي، فرفضت، كرر: «اشلحي» فرفضت، لكنه قام بضربي، ونادى للحراس لكي يقوموا بنزع ثيابي بالقوة، قلت 'لا'.. سأفعل ذلك بنفسي، فكرت بيني وبين نفسي بأن التعري أمام رجل واحد، كبير في السن، أفضل من التعري أمام خمسة أو ستة رجال.. يعني بالنتيجة استسلمت وتعريت من كل ملابسي».

لا تقف مهمة «شرشبيل» عند التعرية القسرية للمعتقلات وتهديدهن بل يتعداها إلى لمسهن والتحرش بهن وأحياناً يصل إلى إدخال أصابعه في أعضائهن التناسلية:

تقول عبير: «بعد أن خلعت قميصي وحمالة ثديي، اقترب مني، وبحجة أني قد أكون خبأت شيئاً في صدري بدأ يتلمس ثديي.».

وتقول هالة: «شرشبيل يقوم بتعريتك بالكامل.. وبحجة أنك قد تخفين شريحة موبايل أو أي شيء آخر يمد يده وأصابعه إلى كل مكان... كل مكان... طبعاً.. لمس صدري وكل مكان».

ذكرت ماري بأنه في الفرع ٢٢٧ صادفت معتقلة جميلة من بيئة محافظة، كانت تخاف كثيراً حين يطلبونها للتحقيق، وقد روت لها أنهم كانوا ينذرونها بأنها حين تُطلب للتحقيق عليها أن تخلع سروالها وتصعد بالعباءة فقط ... كانوا يهددوها بأنهم إذا لم تفعل ذلك فسوف يرمونها في مهجع العساكر المعاقبين ليقوم هؤلاء باغتصابها

«هي كانت كل مرة تفعل ما يقولون خوفاً من تهديداتهم، على الرغم من أنها تعرف أنها ستكون

> فرصة لهم للتحرش بها».... تضيف ماري: « ... نصحتها بعدم الخضوع لتهديداتهم وبأن تتحداهم، لاعتقادي أنه كان مجرد تهديد فارغ، ولكن حين صعدت للتحقيق، دون أن تخلع سروالها، نفذوا تهديدهم... وضعوها في مهجع العساكر المعاقبين وأعطوهم أوامر بالتحرش بها». (ماري)

٣-العنف النفسي

«غالباً ما تدخل المرأة المعتقَل وفي تصورها أنها سوف تغتصب، ويشكل هذا ضغطاً نفسياً عنيفاً عليها، هذا عنف نفسي يصاحب المرأة وهي بعدُ على أبواب المعتقل».. (الدكتور جلال نوفل)

إضافة إلى العنف الجسدي الذي يطال جسد المعتقل/ة بوسائل التعذيب الهمجية لإنهاكه/ا وكسر إرادته/ا، هناك العنف النفسي الذي يتجلى بالضغط على نقاط الضعف العديدة في الروح البشرية لتحقيق الغاية نفسها، ولعل أهمها في مجتمعنا المحافظ هي المسألة الجنسية ومحاولة المس بما يعتبره الإنسان «شرفه» وهي قيمة تضعها غالبية البشر في رأس سلم أولياتها..

وإذ شهدت مراكز الاعتقال السورية بعض الذكور الذين شكل التهديد بانتهاك الشرف بالنسبة إليهم مفتاح إضعاف لإرادتهم، حين تمت تعرية زوجة المعتقل أو أخته أو ابنته، والتهديد باغتصابها أمام عينيه، لكن الأمر بالنسبة للمرأة أكثر حساسية وألماً وتعقيداً، حيث يشكل الشرف والعفاف الجنسي هاجساً مركباً لديها، سواء لدوره المحوري والتربوي في تشكيل بنيتها الشخصية، أو لتحسبها الشديد من رد فعل المجتمع على أية حادثة تطال هذا الجانب من إنسانيتها، وهو الأمر الذي خبرته الأجهزة الأمنية السورية جيداً وعملت عليه لإذلال المعتقلات وإضعافهن، وتالياً لتشويه دور النساء عموماً في النشاط السياسي المعارض وحتى فرص مشاركتهن في إدارة الشؤون العامة.
وإذا أشرنا في فقرات سابقة إلى بعض وجوه العنف النفسي الذي تتعرض له المعتقلات وخاصة الأمهات والحوامل والرهينات، لجهة قسوة ظروف السجن ويومياته وهمجية تعامل الجلادين مع حاجات النساء الخاصة والتمييز بينهن، وصولاً إلى تأثير التعذيب الجسدي على أرواحهن، فقد وجدنا أنه من الضروري التركيز على العنف النفسي الذي تتعرض له المعتقلات في فقرة خاصة، لاعتقادنا أن هذا النوع من العنف قلما يلاحظ، وقلما تعطى له الأهمية في التقارير الحقوقية، والأهم لأن هذا النوع من العنف يترك آثاراً عميقة لدى المرأة المعتقلة ويضعفها في مواجهة الأجهزة الأمنية والمجتمع معاً ويجعلها بالنتيجة تتراجع للخلف عند الإقدام على أي نشاط أو مشاركة في الشأن العام قد تكون عاقبتها الاعتقال.

ولعل أهم ربح تجنيه الأجهزة الأمنية في تعاملها مع المرأة المعتقلة هو الاستثمار في العقلية الذكورية التمييزية السائدة في مجتمع ينحو تلقائياً نحو إدانة المرأة في أي جريمة ترتكب بحقها قبل إدانة الجاني، وتالياً تعزيز الانطباعات المغرضة عن ثمن سوف تدفعه المرأة عند الاعتقال من شرفها، عن أن «كل معتقلة بالضرورة منتهكة ومغتصبة» بما في ذلك الترويج لحكايات مروعة عن معتقلات اغتصبن وانتهكن جنسياً، الأمر الذي يسيء إلى المرأة المناضلة ويساعد في نبذها من المجتمع.

معظم شاهداتنا المعتقلات بعد الثورة ذكرن أن أكثر ما كنّ خائفات منه عند الاعتقال هو «الاغتصاب» وسمعنا من الكثيرات جملاً مثل: «الحمد الله ما صار شي» والمقصود بال«شي» هو الاغتصاب تحديداً، فقد ذكرن في الوقت ذاته تعرضهن لشتى أنواع التعنيف التعذيب الجسدي.

وأفادت معظمهن أنه كان لديهن تصور مرعب عن تعامل الأجهزة الأمنية، وقد قرأن أو سمعن عن ذلك، وأنه عموماً هناك سمعة سيئة جداً لهذه الأجهزة لدى عامة الناس، خاصة فيما يتعلق بتعاملهم مع النساء المعتقلات، وقد وردت في شهادات معتقلات الثورة أنهن سمعن قبل اعتقالهن عن الاغتصاب الذي يحدث بحق المعتقلات، لكن بقي ذلك في حدود التصورات، وتكررت جملة على ألسنة غالبيتهن:

«أن تسمع أمراً شيء، وأن تعيشه واقعياً شيء مختلف...الواقع أسوأ بكثير».

106- منير: اعتقل عام 2012 على الحدود اللبنانية السورية وتم تسليمه للفرع 215 على خلفية نشاطه في التنسيقيات، ومن ثم تم تحويله إلى المحكمة الميدانية وبعدها نقل إلى سجن صيدنايا حيث أمضى حوالي العامين.

وورد في شهادة وعد: «لست أنا فقط من كان لدي تصور أن الأجهزة الأمنية سيئة الأخلاق ويمكن أن تغتصب وتفعل كل شيء، بل الناس البسطاء والبعيدين عن السياسية أيضاً. في فرع فلسطين عام ١٩٨٨ نزلت امرأة أميَّة بسيطة إلى مهجعنا، كانت تهمتها التعاون مع 'جماعة عرفات'... ضُربت وأُهينت، ولم يصدقوها. بعد شهر سمحوا لابنها المراهق بزيارتها، لكي يعرفوا إن كانت تكذب، عرفت من ابنها أثناء الزيارة أن أباه، وكان طليقها، يدور في القرية ويقول للناس أنها عند المخابرات وأنهم يقومون باغتصابها... كان الرجل قد كتب تقريراً كيدياً بطليقته للانتقام منها والإساءة لسمعتها، مستغلاً خطورة تهمة التواصل مع 'جماعة ياسر عرفات' في ذلك الحين، ومستغلاً السمعة السيئة للفروع الأمنية».

وتقول ليال: «سمعت قبل اعتقالي عن الاغتصاب الذي تتعرض له المعتقلات؛ كان يقال فلانة اغتصبت... فلانة تم الاعتداء عليها... نعم كنت أخاف من الاعتقال، لكن كنت أقول 'انشالله ما بيصير شيء'».

وقد أكد ما سبق الدكتور جلال نوفل[107] موضحاً: «لا يمكن بحال مقارنة العنف النفسي الذي يتعرض له الرجل المعتقل، بالعنف النفسي الذي تتعرض له المرأة المعتقلة، فالعنف النفسي بالنسبة للمرأة المعتقلة أشد وأقسى». وأضاف: «على الرغم من أن الكثير من الرجال تعرضوا للاغتصاب، غالباً باستخدام أدوات، لكن بالمعنى النفسي يدخل الرجل إلى المعتقل دون أن يفكر مسبقاً بهذا الخطر، بينما غالباً تدخل المرأة المعتقل وفي تصورها أنها سوف تغتصب، وهذا يشكل ضغطاً نفسياً عنيفاً عليها، هذا عنف نفسي يصاحب المرأة وهي بعدُ على أبواب المعتقل.».

يتجلى العنف النفسي الذي تمارسه الأجهزة الأمنية بشكل ملموس ومتكرر للتأثير على نقاط الضعف لدى المرأة المعتقلة، إن بالتهديد بالاغتصاب، وإن بالوصم والإساءة للسمعة، وإن بانتهاك المساحة الحميمية، بهدف ترك ندوب نفسية ومجتمعية عميقة على المرأة المعتقلة حتى بعد الخروج من المعتقل كعقوبة لها وللمجتمع على حد سواء .

التهديد بالاغتصاب

يعتبر التهديد بالاغتصاب عنفاً نفسياً شديداً يمارس ضد النساء المعتقلات وذكرت معظم شاهداتنا أنه تم تهديدهن بالاغتصاب، وأن هذا الأمر كان يقلقهن ويرعبهن خلال فترة تواجدهن في الفرع.

رانيا: «... منظره كان مرعباً.. كان بالبيجاما ويلبس سلسالاً ذهبياً في رقبته، كان الوقت ليلاً، وكان يحقق معنا وهو يدخن النرجيلة... من لحظة دخولك إلى مكتبه، تدركين من شكله ونظراته أن هذا الرجل ممكن أن يقوم باغتصابك... كلماته البذيئة وطريقة تفتيشه لنا وتحرشاته وتهديداته، حين يعيد ويكرر: 'سوف ترون الآن حين تنزلون للأسفل ماذا سأفعل بكن، سترون حين تدخلون إلى مهجع المتطرفين ماذا سيفعلون بكن'... نعم خفت كثيراً».

وتشرح عبير أن التهديد يجعل المعتقلة في توجس دائم وفي حالة انتظار لتنفيذ هذا التهديد، وفي مكانها ذاك، تكون المعتقلة عاجزة ووحيدة، لكن يتوجب عليها رغم ذلك أن تجد طريقة للتعامل مع هذا التهديد، والتخفيف من نتائجه كي لا تنهار.
«...التهديد لا يتوقف... التهديد بمزيد من التعذيب، التهديد بالشبْح... التهديد بالتعرية.. كنت أقول لنفسي: ليته يتوقف عن التهديد...! ليته يفعل كل ذلك وننتهي...!»

الوصم

ذكرت معظم شاهداتنا أنه تم مخاطبتهن بـ«العاهرة» منذ أول لحظة اعتقال، بهدف وصمهنّ وإدانتهنّ.
يعرّف الوصم بأنه وصف الفرد أو تصنيفه من أجل تحديد هويته، والتأثير فيها، ويرتكز على ميل الأغلبية الاجتماعية بوصم ما يرونه منحرفاً اجتماعياً، حيث يشمل الوصف أموراً أخلاقية وجسدية، ويمكن أن ينتج عن الوصم اضطرابات نفسية حادة وتهديد لوجود الهوية الاجتماعية للفرد.

> يقول الدكتور جلال: **«إن الوصم هو أشد أشكال العنف النفسي الذي تتعرض له المعتقلة، وهو غالباً ما لا يتعرض له الرجال بنفس الشدة.»**

> تتذكر نبال مخاطبة الجلاد للمعتقلات وتضيف أنه سيترك أثراً عميقاً لفترة طويلة لديهن إن لم يتمكن من نسيانه: «كان المحققون يخاطبوننا دوماً بالكلام البذيء، أي جملة يريدون قولها كانوا يسبقونها بكلمة بذيئة.. أقل كلمة كانت ‹عاهرات›.. هو امتهان للكرامة الإنسانية إلى أبعد حد.. هو بالتأكيد سيترك أثراً مؤذياً علينا إن لم نكن قادرات على نسيانه، لأنه سيستمر معنا طيلة حياتنا.»

وصم النظام معارضيه بالمندسين والعراعير، ثم بالخونة، ثم بالإرهابين، وقد استخدم الوصم بشكل ممنهج لمواجهتهم، وفي المعتقل استخدمت الأجهزة الأمنية الوصم ضد النساء المعتقلات من مناطق منتفضة للانتقام من ذويهن من الرجال، واتهمتهن بممارسة «جهاد النكاح» والذي يوضع في خانة ممارسة الدعارة مع إعطائه صبغة دينية لتؤدي غرضين؛ أولهما الاتهام بالانحلال الأخلاقي، وثانيهما الاتهام بالتطرف والإرهاب.

> تقول ماري: «كان معي في الفرع ٢٢٧ عشرات النساء ممن اعتقلوهن كرهائن عن رجال من ذويهن. التهمة التي وجهت إلى هؤلاء هي ‹الدعارة›… كانوا طوال الوقت يتعاملون معهن على أنهن داعرات ويمارسن ‹جهاد النكاح›…كانوا يستخدمون معهن الكثير من البذاءة والقذارة، يعني من مثل: كم مرة انتهك فلان؟ أو كم مرة انتهكت أمك؟ ليصل إلى وصم كل أفراد عائلاتهن بالانحلال الأخلاقي وممارسة سفاح القربى».

التهديد بالإساءة للسمعة

شكل آخر من العنف النفسي تتعرض له النساء المعتقلات، دون الرجال، وهو التهديد بالإساءة للسمعة ضمن الوسط الاجتماعي للمعتقلة، وغالباً ما يقوم أفراد متعاونون من الأجهزة الأمنية بهذه المهمة، بهدف إضعاف موقف أهل وأسرة المعتقلة تمهيداً لنبذها من قبلهم.

> تقول رحاب: «قالوا لي سوف نجعل الناس تبصق عليك.. نعم.. حصل ذلك في الأمن العسكري وفي فرع فلسطين. قالوا: حين ستخرجين ستكون سمعتك مثل الزفت.. حين خرجت من المعتقل تذكرت كلماتهم... ولا أزال أتذكرها... أتذكر كيف عاملني محيطي حين خرجت.. تمنيت كثيراً ‹لو أنني لم أخرج من السجن› كما توقعوا لي تماماً».

> تروي آيات أنه بعد أن ظهرت مطالبات بإطلاق سراحها في الإعلام، طلب ضابط في الفرع منها أن تظهر على شاشة التلفزيون لتعترف بما سيملونه عليها، وحين رفضت قام بضربها وتهديدها:
> «قال لي: «إن لم تموتي هنا فسوف تموتين ‹برا›.. وهو يقصد تخويفي بعقاب أبي الذي أخبروه أني «فقدت عذريتي»... قال لي: ‹غداً حين ستمشين في الشارع وسترين الناس يشيرون لك بالأصابع، ستتمنين لو أنك بقيت هنا› ثم أطفأ سيجارته في يدي»».

107-جلال نوفل طبيب نفسي متخصص، عمل في الدعم النفسي للمعتقلات والمعتقلين لسنوات، كما وقد خاض محنة الاعتقال عدة مرات في فترة حكم الأسد الأب، ثم لعدة مرات في مرحلة الثورة.

انتهاك المساحة الحميمية الجسدية والنفسية

يقول الدكتور جلال حول العنف النفسي الذي تتعرض له النساء في المعتقل: «لكل منّا مساحته الخاصة للحميمية الجسدية والنفسية، هذه الحميمية تكون مساحتها أضيق بكثير عند النساء مقارنة بالرجال، تنتهك المساحة الحميمية لدى النساء منذ اللحظة الأولى للاعتقال، وذلك عبر الوصم بالعاهرة والشتم واستخدام الألفاظ الجنسية والتفتيش وما قد يرافقه من تحرش وكل ذلك، وصولاً إلى الدورة الشهرية التي تشكل عبئاً إضافياً على النساء، مع ما يمكن أن يصاحبها من مشكلات تتعلق بالنظافة، واستغلال معرفة الأمر لدى الجلادين والمحققين، ولا ننسى أنه في الأحوال الطبيعية يصاحب الدورة الشهرية توتر نفسي لدى النساء، كل ذلك هو عنف نفسي وتمييز ضد المرأة المعتقلة».

ثم يشرح بأن المساحة الحميمية تختلف من امرأة لأخرى، فالمعتقلة المحجبة سيكون نزع حجابها انتهاكاً لجسدها وعنفاً ضدها، وعند أخرى سيكون مجرد لمسها هو عنف نفسي لن تنساه بسهولة، كما يختلف بين امرأة متزوجة وامرأة عازبة في مجتمعاتنا.

> ورد في شهادة سحر: «كانوا يستخدمون كلام مرعب للتهديد مثل: ‘خذوها إلى مهجع الرجال’ ‘أنت جميلة سيستمتعون بك... أنت ممتلئة.. الخ..’ كان معنا طالبات جامعيات، كنّ يرتعبن من هذه التهديدات... بالنسبة لهنّ كان مجرد لمسهن تهديداً لمستقبلهن ولسمعة عائلاتهن».

> تقول آيات: «في فترة اعتقالي صادفت امرأة في الخمسينيات من عمرها، كانت محجبة وتلبس عباءة طويلة وتلبس تحتها بنطالاً. حين وضعوها على بساط الريح أمروها أن تخلع بنطالها.. نزع المحقق حجابها وكشف عن جسدها فصارت تبكي ... لا زال صوتها في رأسي وهي تتوسل إليه أن يسترها.. هي لم تتوسل أن يتوقف عن تعذيبها!»

وطبعاً هناك نساء وإن كنّ قلة يضعن المسألة الجنسية وقضية الشرف في سياق سياسي كجزء من نضالهن في مواجهة أعدائهن، ما يقطع الطريق على الجلادين لاستثمار نقطة الضعف هذه.. مثلاً، تذكر ليلى في شهادتها أن أكثر ما آلمها في كل فترة التحقيق هو الإذلال الشخصي وليس الجنسي وذلك حين وضع الضابط المشرف على تعذيبها حذاءه في فمها، بينما بالمقابل اعتبرت كل الكلمات البذيئة والتحرش وما شابه ذلك جزءاً من عملية التعذيب وهي الأسلحة التي يتقنون استخدامها لكسر معارضيهم.

> «كان مظهر فارس يشرف بنفسه على جولات تعذيبي... كل مرة كان يتفنن بإظهار وحشيته. في إحدى المرات، وبعد جولة تعذيب بالكهرباء، وقعت على الأرض فداسني وبدأ يفرك حذاءه بفخذي ويقول كلمات بذيئة ترضي شعوره المنحرف والسادي... اعتبرت إهانته تلك جزءاً من عملية التعذيب، وهي صادرة عن عدوي... لكن في اللحظة التي وضع فيها حذاءه في فمي وبدأ يضحك بشكل هستيري لم أعتبر الأمر كذلك... بل اعتبرته إهانة شخصية مباشرة ومقصودة... أحسست بالقهر... بقيت طويلاً أراه في كوابيسي.. لازلت حتى الآن أشعر بالقهر كلما تذكرت ذلك».

استخدمت الأجهزة الأمنية في حالات كثيرة سلطتها في إحضار ذوي المعتقلة أو المعتقل وإرغامهم على رؤية بناتهم وأبنائهم وهم يعذبون أو يدلون باعترافاتهم وغالباً ما كان هؤلاء معصوبي العيون ولا علم لهم بأن ذويهم حاضرون في غرفة التحقيق.

> استدعى الضابط أبي وقال له «ابنتك تحب رجل مسيحي وكانت تنام عنده، وإن كل النساء ‘تحت’ هن بلا أخلاق وعاهرات وابنتك كذلك»... أبي الرجل المسلم والمتدين، قيل له ذلك، وقيل له إنّي منحلّة أخلاقياً.. كان هدفهم تبرير اعتقالهم لي أمامه... أنا كنت مهندسة ولدي شخصيتي، وهم لا يستطيعون إخباره أني أعمل في السياسية، لذلك ذهبوا باتجاه الإساءة للسمعة من هذه الزاوية».
> (ناهد)[108]

الجزء الثالث:

الخروج من المعتقل

لا يمكن اعتبار اطلاق سراح المعتقلة/المعتقل نهاية للمحنة طالما لم نصل إلى نهاية نظام الظلم والتمييز والاستبداد، وطالما أن المنظومة الأمنية التي قهرت المجتمع السوري لخمسة عقود لازالت تحكم البلاد بالحديد والنار والإرهاب، وطالما لم نشهد أي انتصار للقيم وشعارات الحرية والعدل والمساواة التي يضحي المعتقلون والمعتقلات من أجلها، ولم نلمس تحقيق الحد الأدنى من العدالة، ولنقل جبر الضرر عنهن/م، بالإضافة إلى أن التضييق الأمني على المعتقلات والمعتقلين، الذي يستمر غالباً طيلة حياتهم، كما تتأثر به كل مساراتهم المهنية والاجتماعية والسياسية، بعض وجوهها الفصل من الوظائف والجامعات أو المحاصرة والتضييق عليهن/م في البحث عن عمل جديد، أو إجبارهن/م على مراجعة دورية مذلة لمراكز الأمن تهدر أوقاتهن/م وتضعف قدراتهن/م على ترميم نفوسهن/م، والأكثر إيلاماً في الوقت الراهن هو الغموض الذي يلف مصير مئات الألوف من الرجال والنساء الذين يقبعون حتى اللحظة في أقبية الفروع الأمنية وملحقاتها من السجون المدنية والعسكرية، حيث لا خلاص يلوح في الأفق لهم بينما يتعرضون لشتى أصناف التعذيب والإذلال وامتهان الكرامة الإنسانية.

سنحاول في هذا القسم من التقرير التركيز على التحديات التي واجهت المعتقلات بعد إطلاق سراحهن، حيث نسلط الضوء على آثار هذا الاعتقال وتداعياته النفسية والاجتماعية، من خلال عرض بعض المقتطفات من كلام شاهداتنا، مع الحرص في نهاية هذا التقرير على إفراد مساحة لإجاباتهن على الأسئلة حول: ما الذي يخيفهن اليوم؟ وما الذي تركته التجربة من آثار عليهن، جسدياً ومعنويا؟ هل أستطعن التعافي والاستشفاء والنسيان، وإلى أية درجة لا تزال تجربة الاعتقال حاضرة في تفاصيل حياتهن؟ ثم ندرج ما ذكرنه عن فرص الاستمرار في نشاطهن السياسي ومشاركتهن في الثورة والشأن العام عموماً.

استمرار التضييق الأمني:

«... كل شيء وارد ومحتمل؛ مثلما وضعوك في السجن تسع سنوات يمكنهم في أي لحظة أن يعيدوك إليه». (لمى)

في خطواتهن/م الأولى في اتجاه «برا» وهي المفردة التي تختصر العالم خارج السجن، سيجد المعتقلات والمعتقلون أنفسهم، كل على حدة، في مواجهة تحديات كبيرة تمنعهن/م من العودة إلى مسار حياتهن/م الطبيعية، أهم هذه التحديات هو التضييق الأمني والملاحقة المستمرة، حيث غالباً ما تستمر الاستدعاءات الأمنية ويمنعون من السفر وصولاً إلى حرمانهن/م من حقوقهم المدنية، والأهم من ذلك أنهم يمنعون من مشاركة مخاوفهم وتجاربهم مع الآخرين أو الإدلاء بشهاداتهم، فالأجهزة الأمنية ستحتفظ بملفاتهم، لتطلقها في وجوههم كل حين بهدف إقصائهم وإبعادهم عن أن يكونوا فاعلين سياسياً واجتماعياً، كما ستنتهز كل الفرص لترهيبهم وسرقة ما تبقى من أحلامهم الشخصية والعامة.

> تروي «لمى» كيف كان عليها الذهاب لمراجعة فرع الأمن العسكري في حلب في موعد محدد من كل شهر، منذ لحظة إطلاق سراحها عام ١٩٩٠ وحتى عام ٢٠١٠، ثم تذكر بمرارة كيف كان ذلك الموعد الشهري يسبب لها ضغوطاً نفسية عنيفة: «هو الذل بعينه، قبل الموعد بيومين تشعرين بمغص شديد في أمعائك وتتوترين، حين تدخلين الفرع يجردونك من كل ما تحملينه، تجلسين ساعة أو ساعتين، تكونين فيها لوحدك، تعود إليك على نحو لا إرادي كل الصور، كل ما حصل معك!... وتخافين... تخافين كثيراً، فكل شيء وارد ومحتمل؛ مثلما وضعوك في السجن تسع سنوات يمكنهم في أية لحظة أن يعيدوك إليه».

> تحكي عزيزة كيف كان عليها أن تراجع فرع الأمن العسكري شهرياً في موعد محدد طيلة سنوات بعد أن أطلق سراحها لتعطيهم تقريراً عن كل تحركاتها.
> «... بعد ١١ عاماً في المعتقل كان يتوجب علي الذهاب شهرياً إلى الفرع كي أعطيهم تقريراً عن كل تحركاتي وكل ما فعلته خلال الشهر».

108-ناهد: تولد دمشق عام 1958، اعتقلت في أيلول 1987 من قبل فرع فلسطين بتهمة الانتماء لحزب الشيوعي وأطلق سراحها عام 1991، ثم اعتقلت عام 2005 على خلفية مشاركتها في إدارة منتدى الأتاسي ومن ثم اعتقلت في 16 آذار 2011 على خلفية مشاركتها في اعتصام الداخلية في دمشق حيث بقيت لمدة أسبوعين.

وتشير وعد إلى التنافس بين الأجهزة الأمنية على ملئ الملفات الأمنية، وتعتبر أنها أحد الأثمان الغالية التي يدفعها المعتقلات والمعتقلون بعد إطلاق سراحهن/م، حيث يدركون أن حريتهم كذبة كبيرة وأنهم قد خرجوا من سجن صغير إلى سجن أكبر: «أول مرة استدعيت فيها كانت بعد أسبوع من خروجي من المعتقل... وقفت سيارتهم أمام بيتنا فارتعب أهلي والجيران... كل مرة كانت تعود لي ذكريات الاعتقال التي أردت نسيانها، لم يكن هناك أسئلة جديدة، أحياناً كان يجلسني الضابط أمامه ويعمل لساعات دون أن ينبس بحرف، استدعيت فيما بعد إلى كل الفروع الأمنية في المنطقة، كان من الواضح أنهم يريدون ملىء ملف لي، فهم لا يتشاركون المعلومات... تمنيت كثيراً لو بقيت في السجن، فقد كان ذلك يسبب الكثير من القلق والتعب النفسي لأهلي ويزيد من إحساسي بالذنب تجاههم».

تكشف شهادة سارة التي أطلق سراحها بعد سبع سنوات، أبعاداً أخرى لممارسات الأجهزة الأمنية في متابعاتها لضحاياها، والتي غالباً تحمل أهدافاً إضافية ترمي لترهيب الأهل والمحيط الاجتماعي القريب:«كانوا يزورون أخي في وظيفته كل حين ويسألوه عني ويرسلون لي تحذيرات بأن 'أضب لساني'.. يسألون أيضاً جيراني عن ضيوفي وعن تحركاتي.. مديري في العمل كان يراقب تحركاتي ويسألني ماذا أقرأ ... استمر ذلك الأمر منذ إطلاق سراحي عام ١٩٩١ وحتى خروجي من سوريا».

وتقول الدكتورة فداء أن التضييق الأمني والملاحقة اضطراها لمغادرة مدينة حماة وترك عملها هناك والابتعاد: «بعد اعتقالي قاموا برمي زوجي وهو مقيد اليدين على الحدود الأردنية، طردوه من سوريا لأنه فلسطيني، هذا كان عقابهم له ولي، بعد أن خرجت من المعتقل كان علي أن أقف إلى جانب أسرتي.. لكن رجال الأمن كانوا يلاحقونني في كل خطوة... قال لي أحدهم مرة: 'مللنا منك.. أنصحك بالسفر'.. كان علي مغادرة حماة لأرتاح منهم، لكنني لم أستطع مغادرة سوريا فقد كنت ممنوعة من السفر».

لم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة لمعتقلات الثورة وفق شهاداتهن، بل يمكن القول إن التضييق والمتابعة الأمنية، بعد خروجهن من المعتقل، أخذت شكلاً آخر، أكثر قهراً وظلماً ووقاحة، فبالإضافة للخوف الدائم من الاعتقال مجدداً لمن بقين في المناطق تحت سيطرة النظام، هناك وثائق الاعترافات التي يوقع عليها المعتقلات والمعتقلون بالترهيب والإكراه وهن/م معصوبو الأعين، والتي يمكن أن تشمل تهماً قد توصلهم إلى المحاكم الميدانية أو السجن لسنوات طويلة، فإن كان إطلاق سراحهن/م يعود للواسطة أو مقابل مبالغ مالية أو نتيجة صفقات التبادل فإنهن/م سوف يفضلون الخروج مباشرة من مناطق سيطرة النظام إلى حيث لا يمكن أن تطالهم يد الأجهزة الأمنية.

تقول هالة: «في فرع الخطيب، أجبروني على توقيع تسع أوراق وأنا مطمشة العينين، حين وقفت أمام القاضي سمعت تهماً لا يتصورها عقل، قال لي: أنت اعترفت أنك مارست جهاد النكاح، استدرجت ضباط إلى كمائن، تخابرتِ مع جهات أجنبية، دعمتِ الإرهاب، مسسّتِ بأمن الدولة...! بعد أن أطلق سراحي مقابل مبلغ كبير من المال، هربت فوراً من سوريا، بعد شهر ونصف وصلني أن القاضي حكم عليّ بالسجن مدة ١٥ عاماً.»

الخوف من الاعتقال مجدداً

«... يعني ممكن أن يأتوا في أي لحظة ويقولوا: 'تعالي!' أن ينتزعوني في لحظة من الحياة، يعني سيكون هذا مثل الموت تماماً، لا بل أسوأ».. (ندى)

عند السؤال عن ماذا يخيفهن اليوم، أجابت شاهداتنا اللواتي لا زلن يعشن في مناطق سيطرة النظام أن الخوف أصبح جزءاً أساسياً من يومياتهن، ففي اللحظة التي تنتهي فيها محنة الاعتقال يبدأ الخوف من الاعتقال مجدداً، ينتج ذلك عن اليقين الذي يستنتج من التجربة؛ أن لا خطوط حمراء أمام الأجهزة الأمنية، لانهاية لاستباحتهم حرية الناس وكرامتهم ولا رادع يمنعهم من اعتقالهن/م في أي وقت ومن أجل أي سبب، فمجرد وجود أسمائهن/م في ملفات الأجهزة الأمنية يعني وجود احتمال دائم للاعتقال.

«أنا خائفة تقريباً كل الوقت...الخوف أصبح معياري في الحياة. أحكم على الأشياء من خلال خوفي أو عدم خوفي منها. أخاف من رجال الأمن؛ يعني ممكن أن يأتوا في أي لحظة ويقولوا تعالي، أن ينتزعوني في لحظة من الحياة، يعني سيكون هذا مثل الموت تماماً، لا بل أسوأ... أعتقد أن الموت في النهاية هو راحة وخلاص، أما الاعتقال فهو محاط بالأسوأ من كل شيء، الاعتقال موت معنوي حقيقي، هو بداية سلسلة الجحيم بالنسبة لي».. (ندى)

وعند سؤال شاهداتنا اللواتي يعشن اليوم خارج سوريا عما يخيفهن، ذكرت معظمهن أنهن لا زلن يرتعبن للوهلة الأولى حين يصادفن شرطياً أو رجل أمن، على الرغم من أنهن يعشن اليوم في بلاد ديمقراطية تحكمها القوانين ولا يمكن أن تطالهم فيها يد الأجهزة الأمنية السورية.

«لا زلت أخاف حين أرى رجلاً باللباس العسكري أو بلباس الشرطة، حتى هنا في النمسا... فترة الاعتقال بالنسبة لي مثل الثقب الأسود الذي أصبح مع مرور الوقت يضيق... يجب أن ننسى لكي نغلق هذا الثقب في أرواحنا».(نبال)

«حين أتذكر المعتقل أشعر بالإهانة وأحزن كثيراً.. كنت أخاف، لأني كنت أدرك أنه بإمكانهم اعتقالي في أية لحظة. أحزن حين أتذكر الذين كانوا يهينوننا وأظل أتسأل: كيف استطاعوا فعل ذلك؟.. من أين أتتهم الجرأة على إهانة الناس بهذه الطريقة؟ (رانيا)

التضييق الاجتماعي والعزل

«.. يخرج الرجل من المعتقل كبطل، بينما تخرج المرأة من المعتقل كعار يجب ستره، فما أن يطلق سراح المعتقلة العازبة حتى يسارع أهلها إلى تزويجها وحين يأتي شاب لخطبتها يوصف بالشهم والمضحي!» (سحر)

هكذا اختصرت سحر في شهادتها الفرق بين تعامل المجتمع مع المعتقل الرجل والمعتقلة المرأة، فالمجتمع السوري عموماً لا يحترم تضحية المرأة التي تعتقل، وأيضاً قد يحملها المسؤولية عن اعتقالها وما تكون قد تعرضت له، ويبقى الصمت هو الحل الوحيد لدى المعتقلات في مواجهة المحيط، الصمت عن رواية التفاصيل التي يمكن أن تزيد من إذلالهن من قبل المجتمع.
غالباً ما يفاقم التضييق الاجتماعي معاناة المعتقلة بعد خروجها حيث ينتج عنه فقدان الثقة بالقضية قبل كل شيء ويضاعف من الأذى النفسي والمعنوي لديها ويجبرها، في أحيان كثيرة، على العزلة والانكفاء.

ردة فعل المجتمع تلك تتفهمها بعض شاهداتنا من المعتقلات قبل الثورة، فقد ذكرت بعضهن أنها أمر طبيعي في ظل مجتمع ذكوري عموماً، بالإضافة إلى أنها نتيجة طبيعية للترهيب الذي تمارسه السلطة على المجتمع، والذي يمارس بدوره ترهيباً على الجزء الأضعف من جسده، وهن النساء، علاوة على ذلك فإن جزءاً كبيراً من المجتمع يعتبر إقدام النساء على المشاركة السياسية وهن على معرفة بالثمن الباهظ الذي سيدفعنه، ذنباً يستحق العقاب.
رحاب هي نموذج من النساء المعتقلات اللواتي عانين من اضطهاد المجتمع بعد إطلاق سراحها. فقد كانت تعيش في بلدة صغيرة ومجتمع مغلق، ولم يكن أمامها من خيار سوى الهرب إلى مكان أوسع وأرحب حيث لا أحد يعرف أنها كانت معتقلة، بقي لدى رحاب حتى بعد مضي عشرات السنين على التجربة سؤال يخنق حنجرتها: «ما الذي فعلته لأستحق كل هذا؟»

«... المعتقل كان صعباً ... لكن معاناتي الاجتماعية حين خرجت منه كانت أصعب بكثير؛ الناس الذين وجدتهم 'برا' كانوا الوجه الآخر للنظام، كانوا على نهجه ذاته...'أنت سجنتِ!' إذن أنت خطيرة والجميع يخشاك ويخشى الاقتراب منك، يتهامسون أنك 'مغتصبة' ويربطون ذلك بعرضهم وشرفهم... قلائل جداً من رموا التحيّة علي ومن تعاملوا معي، أحسست أني معزولة تماماً ومرفوضة لديهم... كان الحل أن أترك البلدة وأمضي».. (رحاب)

قد يكون الظلم الاجتماعي الممارس على المعتقلات أمراً طبيعياً حين يمارس من قبل الفئات المقموعة والصامتة، لكن من الغرابة أن يمارس هذا الظلم بين فئات اجتماعية وجماعات ثارت ضد النظام؛ من شاهداتنا من لا تقبل بأي تبرير لذلك، فبالنسبة لهن، لا شيء يبرر أن تعاقب النساء المعتقلات اللواتي وقفن ضد النظام على يد هؤلاء، بل تعتقدن أنه على العكس كان يجب على هؤلاء أن يبدي تعاطفاً وتضامناً معهن ويرفع من عزيمتهن.

تحطمت كل أحلام يارا أمامها منذ أن أخلي سبيلها بناءً على صفقة تبادل، إذ جرى ترحيلها فوراً من الفرع إلى إدلب، تذكر بمرارة كيف كانت تحلم أن تعود لتحضن أمها وأباها وأن تنام في سريرها، عوضاً عن ذلك خرجت لتُفرض عليها عزلة جديدة، وسط بيئة غريبة، مارست ضدها التهميش لأنها أولاً أنثى معتقلة وعازبة وثانياً كونها تنتمي لأصول أقلويّة.

> «رحلوني إلى بيئة غريبة عن بيئتي، كنت في السابعة والعشرين، مهما امتلكت من الثقافة ومن الوعي والإيمان بقضيتك هم قادرون على تحويلك إلى شخص يقول: 'يا ليتني لم أخرج من السجن' فالحياة خارج المعتقل كانت محنة أخرى بالنسبة لي.. حين وصلت إلى إسطنبول، وأردت أن أعمل، لم أسلم من تحرشات رجال كانوا ومازالوا محسوبين من رفاق الثورة».. (يارا)

يمكن القول عموماً أن تعامل المجتمع مع المرأة المعتقلة لم يختلف جوهرياً خلال سنوات الثورة مقارنة بما قبلها ولكن تبقى هناك تباينات تعود لطبيعة هذا المجتمع، فهو يختلف بين مجتمع مغلق وآخر مفتوح وكذلك يختلف بين المجتمعات الريفية والمدنية، فالمجتمعات المغلقة والريفية عموماً كانت ولا تزال تعزل المرأة المعتقلة وتضيق عليها حركتها وتعزل أحياناً عائلتها، علاوة على ذلك تتباين ردة فعل المجتمع من المرأة المعتقلة وفق مكانتها الاجتماعية والوظيفية، وكذلك وفق مكانة عائلتها.

> تروي لونا التي كانت تقيم في حلب أنها لم تتعرض لأي عزل أو إساءة اجتماعية بعد خروجها من المعتقل عام ١٩٨٨، وتعتقد أن السبب يعود إلى أن مدينة حلب كانت قد شهدت اعتقال عشرات النساء، خاصة في بداية الثمانينيات وخلال أحداث الإخوان المسلمين، وتعتقد كذلك أن المجتمع الحلبي عند خروجها من المعتقل كان يدرك حقيقة النظام ويميز بين المجرم والضحية، بالإضافة لسبب هام وهو أن أفراداً من عائلتها كانوا قد سبقوها في تجربة الاعتقال.
> «أهل حلب اختبروا هذا النظام في الثمانينيات وهم في العمق يتعاطفون مع المعتقلين مهما كانت الأيديولوجية التي ينتمون إليها، هم لا يصدقون روايات النظام لتبرير الاعتقال.. كانوا يعتبروننا معارضين فقط». (لونا)

السؤال المرّ

«... نزلت الكثير من الدماء من كل أنحاء جسدي، من أنفي ومن فمي، لماذا لا تسألوني عن جراحي الأخرى أيضاً؟»

> تقول سارة إن أحداً لم يسألها شيئاً عما حصل في المعتقل، وتعتقد أن الرعب هو ما كان يمنعهم من السؤال عن التعذيب، حيث يمكن للإجابات أن تفتح أبواباً للتعاطف والتفهم والمعرفة، ما يجعلهم يتجنبونه: «الجميع يعرفون مقدار التعذيب والظلم الذي تعرضنا له هناك، ولكن السؤال الذي يخطر ببالهم هو: «هل أُغتصبت؟» يقولونها مستخدمين مفردات أخرى مثل « عملوا لك شيء؟ «سؤال يشير لخوفهم من الإشارة المباشرة للجريمة وللفاعل واشارة مريرة إلى أنك من وقع عليها الفعل ووصمها. أما عن التعذيب فهم لا يسألون، كانوا يهربون مني لأن الرهاب من السلطة كان كبيراً في التسعينيات». (سارة)

روت غالبية شاهداتنا على اختلاف المراحل التاريخية التي اعتقلن بها، أنهن تعرضن للسؤال: «هل فعلوا بك شيئاً؟» والمقصود بهذا السؤال «الاغتصاب» تحديداً، حيث ذكرت معظمهن أن هذا السؤال كان يؤلمهن ويغضبهن، كونه يعتبر بمثابة إطلاق حكم إدانة ويشكل إساءة مقصودة لهن، بالمقابل لم يكن أحد يسأل عن التفاصيل الأخرى حول التعذيب وغير ذلك.

> وتقول سلام: «حين يعرف أحدهم أنك معتقلة، وإن لم يسأل، فإنه يتوقع أنك مغتصبة... سئلت بالطبع كثيراً هذا السؤال».

> تعبر يارا عن سخطها وغضبها من السؤال حول إن كانت اغتصبت، فهي تعتقد أنه لا يحق لأحد أن يسأل عن ذلك، وهو إن كان يريد أن يسأل فليسأل عن كل التفاصيل الأخرى مثل التعذيب

والإذلال والعيش في الزنازين والموت الذي كانت شاهدة عليه، ما يزيد سخطها أيضاً هو وصفها بـ «ناجية» فهو ليس وصفاً دقيقاً كما تعتقد، فلا أحد «ينجو» بالمعنى الحقيقي من محنة الاعتقال.
«حين يطلقون عليّ وصف ناجية أكاد أصاب بالجنون.. ليس هناك أحد نجى فعلياً.. كنت أتلقى الأسئلة من المحيطين: هل اعتدوا عليك؟ هل فقدت عذريتك؟ ... في كل مرة أريد أن أصرخ في وجوههم: هل هذا فقط ما يعنيكم؟! نزلت الكثير من الدماء من كل أنحاء جسدي، من أنفي ومن فمي، لماذا لا تسألوني عن جراحي الأخرى أيضاً؟ بعد فترة من الزمن لم يعودوا مهتمين لشأني».
(يارا)

العائلة: سجن أم سند!

أصعب ما يمكن أن تصادفه المعتقلة بعد إطلاق سراحها هو أن تتخذ عائلتها موقف المجتمع وتحكم عليها وتحاصرها وتضيق تحركاتها. في الإجابة عن السؤال حول كيف تعاملت عائلتها معها بدا لنا أن المعتقلات اللواتي كانت عائلاتهن غير قادرة على تفهمهن واحتضانهن أو اعتبرت أنهن وصمن اسمها بالعار، قد خرجن من سجن صغير إلى سجن كبير وغير رحيم، وفق وصفهن، حيث بقين يكافحن طويلاً وحيدات، بعد أن تم التخلي عنهن، بالمقابل استطاعت المعتقلات، اللواتي وجدن لدى عائلاتهن الاحتضان والحماية والتفهم، امتلاك روح معنوية ساعدتهن على الاستشفاء والاستمرار في حياتهن بمسار طبيعي نسبياً.

تشرح لمى كيف أن والدها كان داعماً حقيقياً لها، فهو لم يسمح للناس بالاقتراب كثيراً منها وإحراجها بالأسئلة، على العكس، كان يعبّر لها عن فخره بها واحترامه لتجربتها، حيث ذكرت أنه لم يتركها تنعزل أو تستسلم، بل سارع إلى جعلها تتقدم للامتحان وتحصل على الشهادة الثانوية، من أجل تعويض سنوات عمرها التي ضاعت وكذلك من أجل الالتحاق بجيلها.
«في الأيام الأولى بعد إطلاق سراحي كان الناس يأتون ليروني ... ربما يدفعهم فضولهم لرؤية الصبية التي اعتقلت طفلة وخرجت بعد تسع سنوات، كانوا يسألونني الكثير من الأسئلة... بعد ١٥ يوماً قال أبي لأمي اقفلي الباب، سوف ندرس من أجل الحصول على شهادة البكلوريا.. هذا ما حصل.. نجحت بتفوق بفضل مساندة أبي ثم درست الحقوق وحصلت على الشهادة». (لمى)

بالمقابل تتحدث آيات عن صدمتها الأولى عند إطلاق سراحها، حين قال لها والدها: «فضحتينا!»
وتروي بألم كيف تعامل معها: «أبي لم يحتويني ولم يساعدني أبداً للخروج من وضعي النفسي السيء، بل على العكس، حين خرجت من المعتقل، لم يدعني أكمل حياتي بشكل طبيعي؛ زوجني بعد أسابيع لرجل مارس أيضاً عليّ بدوره كل أشكال العنف، سجنني في البيت، عنفني جسدياً ونفسياً... حين انفصلت عنه وجدت المجتمع في مواجهتي؛ معتقلة ومطلقة وغيرها الكثير من التهم والأحكام الجائرة».. (آيات)
تستنج آيات في نهاية حديثها: «هم جميعاً يشكلون حولك طوقاً من القهر، بدءاً من النظام وانتهاءً بالمعارضة، بينهما العائلة والأهل والمقربون والأصدقاء... هم جميعاً نتاج بعضهم البعض».

وتقول سحر: «حين خرجت من المعتقل سمعت عمي يقول لأمي: ‘لماذا تخرج وتدخل هذه؟’ كان يقصد أنّه عليّ أن أبقى حبيسة المنزل... ثم أضاف: ‘هي تحتاج رصاصة في رأسها’... حتى زوجي الذي لم يطلقني وأنا في المعتقل ردد أكثر من مرة: ‘كان يجب أن أطلقك وأنت هناك...»

بعد انطلاقة الثورة عمد النظام على انتزاع اعترافات تحت التعذيب من المعتقلات وقام بتوزيعها ونشرها عبر وسائل اعلامه متعمداً مخاطبة العقلية الذكورية مما أدى إلى مزيد من الظلم الاجتماعي والأُسري ضد النساء المعتقلات عموماً.

تروي عبير أنّها صادفت أختين معتقلتين من حمص خلال فترة سجنها، أجبرتا تحت التهديد والتعذيب على الظهور على شاشة التلفزيون والقول إنهما قد مارستا جهاد النكاح مع الجيش الحر،

روت عبير بأن آثار التعذيب الوحشي كانت ظاهرة عليهما حين وصلتا سجن عدرا.
«حين استطاع والدهما زيارتهما لأول مرة، قال لهما: لا أنتما ابنتاي ولا أعرفكما.. وحين تخرجان من هنا إنسيا أن لديكما عائلة» (عبير)

حول علاقتها بالرجال تقول لمى:
«خلال تسع سنوات في السجن كان الرجل بالنسبة لي هو المحقق والسجان والشرطي، كنت خلال هذه السنوات أرى الرجل هو من يعذب، كان هو مصدر القهر، شكّل هذا مع الزمن حاجزاً بيني وبين الرجل؛ كان مجرد أن مسني أحد من أخوتي أو قال لي شيئاً أنفجر بالغضب، مات أبي بعد أشهر من إطلاق سراحي قبل أن يساعدني على التخلص من هذه العقدة، لذلك لم أفكر أبداً بالزواج؛ كنت أتخيل أن زوجي سيقهرني. بنيت شخصيتي وأصبح لدي مهنتي وقررت ألا أرتبط برجل.
تزوجت فقط حينما صادفت رجلاً أحبني وأحببته، هو أيضاً خسرته حين اعتقل في بداية الثورة ولا زال مجهول المصير حتى الآن».

بينما تضيف آيات: «لم أستطع التعايش مع أي رجل... تزوجت مرتين، في المرة الأولى كان الزواج رغماً عني.. حين أراد أبي 'ستري' فزوجني بعد أسابيع من إطلاق سراحي وترك هذا الزواج قهراً فوق قهري، وفي المرة الثانية حصل الأمر ذاته».

الإحساس بالذنب

غالباً ما يحكم علاقة المعتقلة بأسرتها إحساسها العميق بالذنب تجاههم، وتحميلها مسؤولية ما عانوه نتيجة اعتقالها، إن كان من الأجهزة الأمنية أو من المجتمع أو من القلق والرعب الذي عاشوه في غيابها، هذا الإحساس غالباً ما يبقى رفيقاً لها طوال سنوات السجن:

«كان أكثر ما يشغل بالي هو كيف سيصل خبر اعتقالي إلى أمي، فقد كان بعد أيام سيحل عيد الأم، وإن لم ترني فسوف تتأكد بأن شيئاً خطيراً قد حدث لي». (سارة)

وتقول ناهد: «.. لا أزال أتذكر مشهد تهاوي أمي وأبي على الصوفا حين جاؤوا لاعتقالي ... يومها لم أستطع إقناع أمي أن تهدأ، فمجيء كل ذلك العدد من العناصر من أجل اعتقالي لم يكن ليقنعها أن الأمر بسيط، يومها تركت أبي وأمي وكأن الشلل أصابهما من الصدمة... بقي هذا المشهد في رأسي طوال سنوات السجن ولا زلت أتذكره بألم حتى اليوم».

تروي ماري في شهادتها عن إحساسها بالذنب تجاه ابنها: «حين اعتقلت قالوا لابني الصغير أنّي كنت على سفر، لكنه كان يتساءل لماذا لا أتصل به... ظن بعقله الطفولي أنّي متُّ وأنهم يكذبون عليه كي لا يحزن... عاش كل تفاصيل الحزن على موت الأم ... كان هذا هو العبء الأكبر بالنسبة لي بعد أن خرجت من المعتقل؛ أن أجعله ينسى!»

الآثار النفسية للاعتقال على النساء

«ما هو أكثر ما يؤلمني؟... كل شيء»

هكذا أجابت ليال على سؤالنا حول أكثر ما يؤلمها عند تذكر المعتقل، وأضافت: «لا يمكن أن أنسى... أتظاهر أمام أولادي وزوجي نهاراً أنّي بخير... لكن حين يأتي الليل أجلس وحدي وأتذكر وأتألم وأبكي وأنتحب».
على الرغم من أن عشرات السنين قد مضت على ذكرى اعتقال النساء اللواتي عشن تجربة الاعتقال في الثمانينيات أو التسعينيات إلا أنهن أيضاً روين بأسى وحزن إحساسهن بالغبن، وتحدثن عن خسارة العمر وعن الظلم غير المبرر الذي أُلحق بهن.

> عزيزة: «... أحاول كل الوقت أن أكون مثل الآخرين، لكن هناك في ذاكرتي فجوة كبيرة.. هي ١١ عام من عمري وهذا ما لا أستطيع المسامحة به ... هناك آثار معنوية ونفسية لا تنتهي، حين خرجت من المعتقل وجدت كل شيء قد تغير... لا شيء كما تركته؛ ليس من السهل أن تتقبلي الناس ولا أن يتقبلوكِ.. ليس من السهل أن يتقبلك أولادك حتى».

> وتعتبر آيات أن فترة الاعتقال كان نقطة مفصلية في حياتها، نقطة انقطاع لم تستطع أن توصلها بما قبلها وبما بعدها: «يكفي أني لم أعش فترة طبيعية بعدها... قبل الاعتقال كانت لديّ خطط أخرى، فجأة انقطع خيط حياتي الطبيعي؛ خسرت أصدقائي، خسرت دراستي الجامعية. زوجوني وأنا الآن أم لولدين ووحيدة... لدي في ذاكرتي جزء مفقود... قد ننسى الضرب والتعذيب، لكن هناك آثار لا يمكن تجاهلها».. (آيات)

وفي سؤالنا لهن عمّا بقي في ذاكرتهن من الاعتقال، تلقينا إجابات محزنة جداً من معتقلات الثورة، حيث بدت لنا أن جراحهن لا تزال طريّة، وأنه وإن كن يعشن في غالبيتهن اليوم خارج سوريا، حيث هن في مأمن من الاعتقال، إلا أن كوابيسهن لازالت مزدحمة بالصور المرعبة.

> «هو وجع لن أستطيع نسيانه، هو بالنسبة لكل المعتقلات جرح لن يندمل... أحياناً كثيرة أجلس وحدي وأبدأ بالبكاء؛ لا أبكي فقط على نفسي بل عليهن، أجلس وأتخيل كيف أنّه في هذه اللحظة هناك معتقلة وصلت للفرع، ثم أبدأ بتخيل ما الذي يفعلونه لها؛ الآن ستدخل إلى غرفة شرشبيل للتفتيش وبعدها سوف تتعرض للتعذيب، للإهانة، للتهديد، لـ...» (هالة)

> وتجيب جنى عن شعورها حين تتذكر الاعتقال: «مشاعري مشوشة ... مزيج من الغضب والحزن والخجل والوجع... وجع داخلي عميق. حين يؤلمني ظهري أتساءل للحظات ما هو سبب هذا الألم، ثم أتذكر أنّه نتج عن الضرب المتوحش الذي تعرضت له؛ حين أصل إلى هذا الجواب أغضب وتجتاحني مشاعر سيئة جداً، أجلس أبكي، حين أنظر إلى ساقيّ وأرى آثار الحروق أحزن.. أحزن كثيراً.. أحياناً أستحي من ساقيّ وأقول في نفسي: ما الذي فعلته لأستحق كل ذلك...؟» (جنى)

مستمرات رغم كل شيء

«... نعم ما أزال أناضل، أناضل ضد خوفي أولاً».. (ندى)

غالبية شاهداتنا ذكرن أن المعتقل بالنسبة لهن شكّل نقلة محورية في حياتهن، وعلى الرغم من أن الكثير من الكلام قيل حول مأساوية أوضاعهن وما عانينه بعد الخروج من المعتقل، إن كان على الصعيد النفسي أو الاجتماعي أو تعاملهن مع الذكريات القاسية التي تحضر غالباً على شكل كوابيس، أو على صعيد جراح جسدية ونفسية لم تبرأ، على الرغم من كل ذلك ذكرت العديد منهن أن هذه التجربة زادت من صلابتهن وأثرت على تكوين شخصياتهن واختياراتهن لمسار حيواتهن والقضايا والأفكار التي التزمن بها فيما بعد، فقد ذكرت لمى أنه على الرغم من أنها كبرت على سماع أصوات التعذيب وعلى الظلم والقهر، إلا أن المعتقل أكسبها خبرة سياسية وجعلها أكثر صلابة، فهي اعتقلت في عمر المراهقة وكان من حسن حظها، وفق وصفها، أنها التقت خلال سنوات سجنها الطويلة بنساء مثقفات ولديهن خبرة حياتية وسياسية عميقة، هؤلاء أضفن الكثير لها، مما انعكس على فهمها وخبرتها في الحياة فيما بعد، وتحدثت عن التضامن بين النساء داخل المعتقل والذي خفف كثيراً من ثقل وصعوبة الحياة في السجن على الرغم من الاختلاف الأيديولوجي الكبير بينهن، وفق قولها.

> «تأثرت بشخصيات كانت موجودة في السجن، نساء ذوات خلفيات ثقافية وسياسية واجتماعية متنوعة، كنت صغيرة وكان لابد أن تتأثر شخصيتي بهنّ، الإنسان يتأثر بالضرورة بمن حوله فما بالك إن عاش معهن لسنوات في غرفة، هؤلاء أتذكرهن دائماً ولا يزلن يحتللن مكانة كبيرة في داخلي وأشعر أني كنت محظوظة بالتعرف عليهن» (لمى)
> نشطت لمى من جديد في بداية الثورة وأصبح هناك من يعرّف عنها بفخرٍ على أنها «معتقلة سابقة» كما تقول.

«لا أخاف من شيء ولا ينتابني أي قلق أو ندم وهناك الكثير من السلام في داخلي. حين انطلقت الثورة السورية قررت أن أشارك بالتظاهرات... قلت في نفسي ما وصلنا له قبل ٢٠١١ هو نتيجة سكوتنا طوال عقود وأن هذا النظام كان يحتاج أن نثور ضده منذ زمن، فللأسف حين خرجنا من المعتقل في التسعينيات كان الكثيرون لايزالون يصفقون للطاغية.. في النقابة (تقصد نقابة المحامين في حلب) رفعتُ علم الثورة ولم أخش من الاعتقال ولا من أي شيء». (لمى)

على الرغم من أن الحياة السياسية كانت قد بدت وكأنها تحتضر عند خروج معظم شاهداتنا في التسعينيات، إلا أنهن أكدن عدم تراجعهن عن القضايا التي آمنّ بها، ولو كانت هنالك فرص للعمل والنشاط السياسي حينها لما وفرن جهداً، ومعظمهن ذكر أن انطلاقة الثورة السورية عام ٢٠١١ كانت بالنسبة لهن أملاً وحلماً كبيراً بدأ يتحقق، الأمر الذي قوى من عزيمتهن ودفعهن للمشاركة بلا تردد.

«بعد إطلاق سراحي عام ١٩٨٣ عدت في اليوم التالي لنشاطي السياسي، لا شيء كان يمكن أن يوقفني، لكن حين خرجت من السجن بعد سنوات من اعتقالي الثاني عام ١٩٩١، كانت الحياة السياسية قد صودرت بالكامل، لكن مع قيام الثورة تجدد الأمل وبدا أن الحلم بالتغيير سيصبح واقعاً، حينها عدت لنشاطي على الفور ولم أتوقف حتى اليوم، معظم رفيقات سجني عدن لنشاطهن أيضاً». (سارة)

تعتبر عزيزة أنها من النساء اللواتي تشكل وعيهن السياسي في المعتقل، نتيجة الظلم الذي وقع عليها، أو كانت شاهدة عليه: «في السجن أصبح لدي تصميم بأن هذا النظام لا يمكن أن يبقى، وأنه لا يجب أن أسكت أبداً، سوف أستمر في النضال ضده وضد كل ظلم ... فلا يمكنك أن تحاكم الناس كما يحلو لك، يجب أن يكون هناك دور للقضاء وللعدل».

وتقول ناهد أنها لم تتوقف أبداً عن نشاطها السياسي، حيث نشطت في بداية ربيع دمشق من خلال المنتديات وفي ٢٠٠٦ بدأت بالاهتمام بالعمل النسوي وشكلت مع مجموعة من صديقاتها تجمع «نساء من أجل الديمقراطية» حيث انضمت إليها العديد من رفيقات سجنها، لكن سرعان ما تمّ إجهاض هذا النشاط على يد الأجهزة الأمنية وتمّ استجوابها وبعض صديقاتها وفصل بعضهن من العمل ومنعن من السفر، وقد اعتقلت مجدداً في بداية الثورة ولم تتوقف عن نشاطها السياسي حتى اليوم.
«لم أتوقف ولا لحظة عن العمل السياسي منذ خروجي من المعتقل، على الرغم من أني استدعيت واعتقلت أكثر من مرة منذ عام ١٩٩١ وحتى اليوم، وبكل تأكيد لن أتوقف، لأني مؤمنة بأهمية المشاركة السياسية وبوجوب تغيير هذا النظام». (ناهد)

حين خرجت «لينا» من المعتقل كان يجب أن تقوم بدورها كأم وزوجة معتقل، حيث تذكر أن زوجات المعتقلين يمارس عليهن تمييز على أساس جنساني، وعلى الرغم من أن لينا تحدثت أن تذكرها اعتقالها واعتقال زوجها يرهقها حتى اليوم ويشعرها بالقهر، لكنها لم تمارس العمل السياسي إلى أن قامت الثورة، حيث تجدد أملها وحلمها القديم بالتغيير: «بعد أن خرجت من المعتقل كان علي أن أقوم بدور الأم والأب لابنتي على إثر بقاء زوجي فيما بعد مدة ثماني سنوات في السجن... أشعر بالقهر كلما تذكرت ذلك... كنت أحاول أن أكون الأم وزوجة المعتقل المثالية، بعد انطلاقة الثورة عدت لمتابعة الشأن السياسي وحين خرجت من سوريا نشطت بقوة ولن أتوقف بعد اليوم». (لينا)

وتكثف «وعد» تجربتها: «في السجن كنا نسند بعضنا البعض ... لذلك حين خرجت شعرت بأني وحيدة وبلا سند وذلك جعلني انكفئ لسنوات، حتى جاءت الثورة وأيقظت لدي كل الآمال والأحلام القديمة ,, نشطت بالعمل المدني والسياسي منذ الأشهر الأولى ولم أتوقف حتى الآن».

تقول آيات: « الاعتقال وكل ما يتركه من آثار لن يكون عائقاً أمام الاستمرار، أنا متأكدة من ذلك ... تعرفت على نساء اعتقلن أكثر من مرة وفي كل مرة كنّ يخرجن أكثر إصراراً» (آيات)

توضح آيات أن الاعتقال الأول ساهم في تشكيل وعيها السياسي، ذلك من خلال التجارب التي تعرفت عليها في المعتقل، لكن الضغوط الاجتماعية والأسرية فيما بعد فرضت عليها الانكفاء، ومع انطلاقة الثورة تواصلت مع الناشطات والنشطاء وبدأت ترسم طريقها من جديد إلى أن اعتقلت مجدداً، وفي سؤالها عن تصورها إن كانت النساء اللواتي التقت بهن في اعتقالها الثاني قد عدن مجدداً لنشاطهن بعد الخروج من المعتقل ميزت آيات بين المعتقلات السياسيات والملتزمات بقضية وبين «المعتقلات بالخطأ»، على الرغم من ذلك أشارت أن الكثيرات من هؤلاء يخرجن من السجن وهن صاحبات رأي وقضية، فتجربة الاعتقال وعلى الرغم من قسوتها تضع الإنسان في مكان يرى الأمور فيه بشكل أوضح ويلزمه على اتخاذ موقف واضح من القمع والاستبداد.

تُعد «ليال» نموذجاً عن النساء اللواتي اعتقلن لمساهمتهن بالعمل الإنساني والإغاثي، حيث تشكل وعيها السياسي داخل المعتقل، فخرجت أكثر عزماً وإصراراً على التغيير وعلى إسقاط النظام.
ليال: «'أنا لا دخل لي بالسياسة... لا أعرف حتى ما اسم الرئيس الذي سبق حافظ الأسد' هذا ما قلته للمحقق، ولم أكن أكذب... شاركت في الثورة لأني كنت أساعد الناس الذين يقع عليهم الظلم... هذا ما فعلته وعوقبت من أجله».
وأضافت: «اليوم أريد أن يسقط هذا النظام ولست نادمة أبداً على أي شيء فعلته، على العكس أتمنى لو تمكنت من فعل المزيد.»

في السجن عملت عبير على مساعدة باقي المعتقلات عبر تقديم الدعم النفسي لهن: «صادفت في السجن معتقلات صغيرات وأمهات لا شأن لهن بالسياسة. كنت أشعر بالمسؤولية تجاههن. عملت مع صديقات لي في المعتقل على دعمهن نفسياً. كنا نجلس معهن ونقوي من عزائمهن ونحكي لهن عن الثورة ولماذا قامت..»
وعن التضامن بين النساء في المعتقل تقول عبير:
«حملت ذكريات جميلة رغم كل شيء عن تلك الفترة... أتذكر كيف كنا نغني؛ وحين يأمروننا أن نسكت ويهددوننا بالضرب نبدأ بالغناء الصامت والمضحك، كيف كنت أغني لهن حتى ينمن».
وعن الاستمرارية في النضال قالت عبير:
«سأبقى أناضل لمحاسبة كل المجرمين، اليوم أصبحت هذه قضيتي».

ماري أيضاً مارست نشاطات في السجن وأقامت ورشات توعية وتدريب حول مهارات التواصل، وهو مجال اختصاصها، حيث شكلت مع بعض صديقاتها مجموعات حوار مع النساء اللواتي يعانين من مشكلة التواصل مع أبنائهن أو أزواجهن، وعلى الرغم من أنّها أصيبت باكتئاب بعد خروجها من المعتقل، إلا أنّها نهضت مجدداً وسرعان ما عادت لنشاطها المجتمعي والسياسي.
«حين خرجت من السجن ورغم كل المضايقات الأمنية إلا أنّي لم أتوقف، على العكس تضاعف نشاطي، كان كلما زاد حصارهم وجدت طريقة للاستمرار والتهرب منهم... بقيت سنتين ونصف بعد إطلاق سراحي في سوريا ولم أكن أريد الخروج أبداً، لكني في النهاية لم أعد أستطيع التحمل، فهربت مع عائلتي، اليوم أقوم بما أستطيعه لدعم قضيتي من مكان لجوئي». (ماري)

وحول الاستمرار في النضال من أجل التغيير تقول فداء: «في النتيجة هذا النظام لا يمكن أن يستمر، لا يمكن للظلم والفساد والإجرام أن يستمر، لا زلت مستمرة في نضالي من أجل الديمقراطية والتغيير ولا أنا ولا ملايين السوريين، الذي ثاروا على هذا النظام، يمكن أن يوقفنا شيء بعد الآن».

تعتقد ندى أنها بدأت تتعايش مع الواقع المؤلم في الداخل، لكنه يتوجب عليها كل يوم أن تتحدى خوفها وتصارعه: «أحاول كل الوقت ألا أخاف، لأن الخوف سيعطل كل أحلامي وسيجعلني أقبل بالواقع السيء المفروض علينا... نعم ما أزال أناضل، أناضل ضد خوفي أولاً، هذا أسوأ ما حصل لنا».
ندى التي اختارت البقاء في سوريا وتبذل جهدها لكي تستمر، في ظل ظروف أقل ما يقال عنها أنها شاقة على كافة الصعد، أنهت شهادتها بالحديث عن سبل مقاومة الخوف وذلك من خلال البحث عن وسائل يمكن أن تعمم على الجميع حول كيف يمكن مقاومة الاعتقال وآثاره.
«الخوف من الاعتقال يدفع الناس للخروج من البلد، يدفعهم قبل ذلك للخروج من ساحة الفعل والنشاط، يجعلنا ندور في حلقة مفرغة كل الوقت، أعمل اليوم على الخروج من هذه الحلقة المفرغة، على إعادة خوفي إلى حجمه الواقعي وإيجاد طرق للتعامل معه، ذلك من خلال التخفيف من أثره الرمزي، ومن خلال وضع التجربة في حجم منطقي يمكّنني من المتابعة والاستمرار، يجب علينا جميعاً العمل على ذلك بالمعنى النظري، أفكر مثلاً بأنه طالما هناك قمع وطالما أنه بقي الاعتقال مصير الكثيرات والكثيرين، علينا أن ننتج دليلاً حول ما الذي يخفف من النتائج السلبية على المعتقل، ما الذي يجنبه الموت تحت التعذيب أو يخفف منه، كيف يتعامل مع جلاده، مع سجنه وضيق مكانه، وغيرها الكثير، يمكن لذلك أن يعطينا مساحة أكبر لاستمرار نضالنا ضد الديكتاتورية، مدنياً كان أم سياسياً». (ندى)

خاتمة

نأمل أن نكون قد أظهرنا في هذا التقرير جوانب من الحقيقة حول أشكال العنف التي تمارس على المعتقلين بشكل عام وعلى المعتقلات النساء بشكل خاص، على يد الأجهزة الأمنية السورية القمعية، وكيف تم ويتم استخدام العنف والقمع والتعذيب والتنكيل واستباحة كرامات الناس كسلاح ضد كل من امتلك الجرأة لمعارضة النظام ومناهضة استبداده، وهي ذاتها الأسباب التي جعلت الشعب السوري يقوم بثورته على النظام عام ٢٠١١.

لم يكن هدفنا بالطبع إظهار شاهداتنا كبطلات ولا أيضاً كضحايا، فنحن وهن ما نزال نناضل ضد هذا التنميط، مثلما نناضل ضد أشكال الوصم التي أدرجناها أعلاه، بل على العكس، أردنا أن نسرد حكاياتهن بكل أمانة كما روينها، أن نحتفي بصفاتهن البشرية والفردية الخاصة، بتضامنهن، بوقوفهن مجدداً، بالقدرة على الكلام وإعلاء الصوت، بإصرارهن على استمرار النضال من أجل التغيير الديمقراطي ومن أجل مواجهة كل أشكال الاستبداد، ومحاسبة كل مرتكبي الجرائم. ونعتقد أنهن تمكنّ من الخروج من المحنة وهن أكثر إصراراً وعزيمة، فمنهن اليوم من تمارس العمل السياسي بفعالية، ومنهن من تعمل على قضية العدالة والمحاسبة، ومنهن من تعمل على بناء إمكانياتها وتطوير مهاراتها، لأنها تحلم بالعودة إلى سوريا الحرة، للمشاركة في إعادة بناء الوطن والمجتمع، ومنهن من بقيت هناك في الداخل تقاوم خوفها وتراكم ما تشاهده من ظلم وتنكيل، كي تتحفز من جديد للعودة نحو فاعليتها السابقة، هن جميعاً ينتمين إلى الشعب السوري النبيل والمنكوب، الذي على الرغم من شدة ما تعرض له على مرّ السنوات المنصرمة من جرائم الفتك والتدمير والاستباحة، لابد سينهض من جديد ليكون أكثر وعياً وإصراراً على التغيير وأشد عزيمة على حماية مبادئ الحرية والكرامة والعدل والمساواة التي ضحى كثيرون وكثيرات من أجلها.